

تَفْسِيرُ الْمُرَاغِي

تَأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية

بكلية دارالعلوم سابقا

الجزء التاسع والعشرون

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

الجزء التاسع والعشرون

سورة الملك

هي مكية ، وآيها ثلاثون ، نزلت بعد سورة الطور .
ومناسبتها لما قبلها — أنه لما ضرب مثلا للسكران بتينك المرأتين اللتين قدر لهما الشقاء وإن كانتا تحت عبدين صالحين ، ومثلا للمؤمنين بأسية ومريم وقد كتب لهما السعادة وإن كان أكثر قومهما كفاراً — افتتح هذه السورة بما يدل على إحاطة علمه عز وجل وقوره وتصرفه في ملكه على ما سبق به قضاؤه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمَلِكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ
الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢)
الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ
فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ

يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا
بِمَصَافِيحَ وَجَعَلْنَا هَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥).

شرح المفردات

البركة: الزيادة حسية كانت أو عقلية، خلق: أى قدّر، لييلوكم: أى ليختبركم
والمراد ليعاملكم معاملة المختبر لأعمالكم، أحسن عملا: أى أخلصه الله، العزيز:
أى الغالب الذى لا يعجزه عقاب من أساء، الغفور: أى كثير المغفرة والستر لذنوب
عباده، طباقا: أى طبقة بعد طبقة، تفاوت: أى اختلاف وعدم تناسب، والفظور:
الشقوق، واحدها فطر، يقال فطره فانفطر، كرتين: أى رجعتين أخريين فى ارتياد
الخلل، والمراد بذلك التكرير والتكثير: أى رجعة بعد رجعة، ينقلب: أى يرجع،
خاسئا: أى صاغرا ذليلا مبعدا لم ير ميهوى من الخلل، حسير: أى كليل منقطع
لم يدرك ما طالب، والحاسر: المعيا لنفاد قواه، والمصاييح: واحدها مصباح وهو
السراج؛ والمراد بها الكواكب، والرجوم: واحدها رجم (بالفتح) وهو ما يرمج
ويرمى به، والشياطين: هم شياطين الإنس والجن، وأعتدنا: أى هيأنا، عذاب
السعير: أى عذاب النار المسعرة الموقدة.

المعنى الجملى

مجدّد الله نفسه وأخبر أن بيده الملك والتصرف فى جميع المخلوقات بما يشاء لامتعب
لحكمه، ولا يسأل عما يفعل، لقهره وحكمته وعدله، وهو التقدير على كل شيء؛
ثم أخبر بأنه قدّر الموت والحياة ليهلوكم فينظر من منكم أخلص له عملا، وهو ذو العزة
الغالب على أسره، الغفور لمن أذنب ثم تاب وأقبح عنه، ثم أودف ذلك بأنه خلق
سبع سموات بعضها فوق بعض لا خلل فيها ولا عيب، فانظر أيها الرائي ترى فيها

شقا أو عيبا؟ ثم أَعِدِ النظر وحدِّقِ بالبصر، لتستيقن تمام تناسبها واستواء خلقها، وقد زينا أقرب السموات إليكم بكواكب يهتدى بها السارى، ويعلم بها عدد السنين والحساب، وعليها تتوقف حياة الحيوان والنبات، وهى أيضا سبب الأرزاق المهيجة لشهوات شياطين الإنس والجن، وهؤلاء قد استمدوا شيطنتهم من مظاهر الطبيعة بوساطة الحرارة والضوء من الكواكب، وبذا أعد لهم عذاب السعير جزاء ما اقترفوا فى حياتهم الدنيا.

الإيضاح

(تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير) أى تعالى ربنا الذى بيده ملك الدنيا والآخرة، فهو يعز من يشاء وينزل من يشاء، ويرفع أقواما ويخفض آخرين، وهو على ما يشاء فعله ذو قدرة لا يمنعه مانع، ولا يحول بينه وبين ما يريد عجز، فله التصرف التام فى الموجودات على مقتضى إرادته ومشئته بلا مفازع ولا مدافع.

والخلاصة — تعاضم عن صفات المخلوقين من بيده الملك والتصرف فى كل شىء، وهو قدير يتصرف فى ملكه كيف يريد من إنعام وانتقام، ورفع ووضع، وإعطاء ومنع.

ثم شرع يفصل بعض أحكام الملك وآثار القدرة، ويبين ابتداءها على الحكم والمصالح، وأنهما يستتبعان غايات جليلة فقال:

(الذى خلق الموت والحياة) أى الذى قدر الموت وقدر الحياة وجعل لكل منهما مواقيت لا يعامها إلا هو.

(ليبلوكم أيكم أحسن عملا) أى ليعاملكم معاملة من يُختبر حاله، وينظر أيكم أخلص فى عمله، فيجازيكم بذلك بحسب تفاوت مراتبكم وأعمالكم، سواء أكانت أعمال القلب أم كانت أعمال الجوارح.

وقد روى في تفسير الآية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أيكم أحسن عقلا ، وأورع عن محارم الله ، وأسرع في طاعته عز وجل » . يعنى أيكم أتم فهماً لما يصدر عن حضرة القدس ، وأكمل ضبطاً لما يؤخذ من خطابه ، وأيكم أبعد عن ملاسة الكبائر ، وأسرع في إجابة داعى الله .

وفيه ترغيب في الطاعات وزجر عن المعاصى كما لا يخفى على ذوى الألباب .

(وهو المميز الغفور) أى وهو القوى الشديد الانتقام ممن عصاه وخالف أمره ،

الغفور لذنوب من أناب إليه وأقلع عنها .

وقد قرن سبحانه الترهيب بالترغيب في مواضع كثيرة من كتابه كقوله تعالى :

« نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » .

وإثبات العزة والغفران له يتضمن كونه قادراً على كل المقدورات ، علماً بكل

المعلومات ، ليجازى المحسن والمسيء بالثواب والعقاب ، ويعلم المطيع من العاصى ،

فلا يقع خطأ فى إيصال الحق إلى من يستحقه ، ثواباً كان أو عقاباً .

ثم ذكر دلائل قدرته فقال :

(الذى خلق سبع سموات طباقاً) أى هو الذى أوجد سبع سموات بعضها فوق

بعض فى جوّ الهواء بلا عماد ، ولا رابط يربطها مع اختصاص كل منها بجزء معين

ونظم ثابتة لا تتغير ؛ بل بنظام الجاذبية البديع بين أجرام الأرضين والسموات ،

كما جاء فى قوله : « اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى

الْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى » .

ثم ذكر دلائل العلم فقال :

(ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور) أى

لا ترى أيها الرأى تفاوتاً وعدم تناسب ، فلا يتجاوز شىء منه الحد الذى يجب له

زيادة أو نقصاً على نحو ما قيل :

تناسبت الأعضاء فيه فلا ترى بهنَّ اختلافاً بل أتَيْنَ على قَدَرٍ
فإن كنت في ريب من هذا فارجع البصر حتى تتضح لك الحال ، ولا يبقى لك
شبهة في تحقق ذلك التناسب والسلامة من الاختلاف والشقوق بينها .

وإنما قال : (في خلق الرحمن من تفاوت) دون أن يقول : (فيها) تعظيماً
لخلقهنَّ ، وتأييها إلى سبب سلامتِهِنَّ من التفاوت بأنهنَّ من خلق الرحمن ، وأنه
خلقهنَّ بياهر قدرته وواسع رحمته تفضلاً منه وإحساناً ، وأن هذه الرحمة عامة
في هذه العوالم جميعاً .

ثم أمره بتكرير البصر في خلق الرحمن على سبيل التصفح والتتبع ، هل يجد فيه
عيباً وخطأ فقال :

(ثم ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير) أى إنك إذا
كررت النظر لم يرجع إليك البصر بما طلبته من وجود الخلل والعيب ، بل يرجع
إليك صاغراً ذليلاً لم يرمأهوى منهما ، حتى كأنه طرد وهو كليل من طول المعاودة
وكثرة المراجعة .

والمراد بقوله « كرّتين » التكرير كقوله :

لو عُدَّ قبر وقبر كان أكرمهم بيتاً وأبعدهم من منزل الدّام

وبعد أن بين خلوّ السموات من العيب ذكر أنها الغاية في الحسن
والبهاء فقال :

(ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) أى ولقد زينا السماء القربى من الأرض
وهي التي يراها الناس بكواكب مضيئة بالليل كما يزرنَّ الناس منازلهم ومساجدهم
بالشُّرُج ، ولكن أئى لسرج الدنيا أن تكون كسرج الله ؟

والخلاصة — أن نظام السموات لا خلل فيه ، بل هو أعظم من ذلك ، فقد
زينت سماؤه القربية منا بمصابيح ، هي بهجة للناظرين ، وعبرة للمعتبرين .

(وجعلناها رجوماً للشياطين) أى وهذه الكواكب لا تقف عند حد الزينة بل بضونها يكون ما فى الأرض : من رزق وحياة وموت ، بحسب التاموس الذى سنناه ، والقدر الذى أمضيناه ، ويكون فى العالم الإنسانى وعالم الجن نفوس تتقاذفها الأهواء ، وتتقاذفها اللذات والشهوات التى تنجم من العناصر المتفاعلة بسبب الأضواء المشعة النازلة من عالم الكواكب المشرقة فى السماء .

وقصارى القول - إن هذه الكواكب كما هى زينة الدنيا ، وأسباب لرزق ذوى الصلاح من الأنبياء والعلماء والحكماء ، هى أيضا سبب لتكوين الأرزاق المهيجة لشهوات شياطين الإنس والجن ؛ فهذا العالم قد اختلط فيه الضر بالنفع ، وأعطى لكل ما استعد له ؛ فالنفوس الفاضلة ، والنفوس الشريرة ، استمدت من هذه المادة المسخرة المهورة ، فصارت سببا لثواب النفوس الطيبة ، وعذاب النفوس الخبيثة ، وصار لهم فيها رجوم وظنون ، إذ هم قد استمدوا شيطنتهم من مظاهر الطبيعة الناشئة من الحرارة والضوء .

ويرى بعض المفسرين أن المراد أن المصاييح التى زين الله بها السماء الدنيا لا تزول عن مكانها ولا يرحم بها ، بل ينفصل من الكواكب شهاب يقتل الجنى أو يخبئه .

قال قتادة : خلق الله النجوم لثلاث : زينة للسماء ، ورجوم للشياطين ، وعلامات يهتدى بها فى البر والبحر ، فمن تكلم فيها بغير ذلك فقد تكلم فيما لا يعلم ، وتعدى وظلم .

(وأعتدنا لهم عذاب السعير) أى وهيا لنا لهؤلاء الشياطين فى الآخرة عذاب النار الموقدة كفاء ما اكتسبوا من اللذات ، وانجذبوا إليه من الشهوات ، وغفلوا عن جمال هذه العوالم التى لم يعرفوا منها إلا شهواتهم ، أما عقولهم فقد احتجبت عنها ، والخلاصة - إن السماء قد أضاءت على البر والفاجر ، فالعجاج حصروا أنفسهم فى شهواتهم ، فلم ينظروا إليها بنظر فكر وعقل ، بل نظروا إليها باعتبار أن بها تقوم

حياتهم ، وهؤلاء أعتدنا لهم عذاب السمير فى الآخرة ، لأن هذا يشاكل حالهم فى الدنيا ، إذ هم فيها قد حبسوا أنفسهم فى نيران البخل والحقد والطمع ، فتحولت إلى نار مبصرة يرون عذابها فى الآخرة .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّمِيرِ (١٠) فَأَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَنَسَخْنَا لِأَصْحَابِ السَّمِيرِ (١١)

شرح المفردات

ألقوا فيها : أى طرحوا فيها كما يطرح الحطب فى النار ، والشهيق : تنفس كتنفس المتغيظ قاله المبرد ، تفور : أى تغلى بهم كغلى المرجل قاله ابن عباس ، وقال الليث : كل شئ جاش فقد فار كفور القدر والماء من العين ، تميز : أى يفصل بعضها من بعض ، والغيط : شدة الغضب قاله الراغب ، فوج : أى جماعة ، خزنتها : واحدها خازن ، وهم مالك وأعوانه ، نذير : أى رسول يندركم بأس الله وشديد عقابه ، إن أنتم : أى ما أنتم ، ضلال كبير : أى ضلال بعيد عن الحق والصواب ، فسحقتنا لهم : أى فبعدنا لهم من رحمة ربهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن شياطين الإنس والجن قد أعدّ لهم عذاب السعير ،
أردف ذلك ببيان أن هذه النار قد أعدها لكل جاحد بوحدايته ، مكذب برسله ،
منكر للبعث واليوم الآخر ، ثم وصف هذه النار بأوصاف تشيب من هولها الولدان ،
وتصطك اسماءها الأسنان ، منها :

- (١) أنه يسمع لها شقيق حين يلقى الكافرون فيها .
- (٢) أنها تقور بهم كما يقور مافى المرّجل حين يغلى .
- (٣) أنها تكون شديدة الغيظ والحنق على من فيها .
- (٤) أن خزنتها يسألون داخلها : ألم تأتكم الرسل فتبعكم عن هذا العذاب ؟
- (٥) أن أهلها يعترفون بأن الله ما عذبهم ظلما ، بل قد جاءهم الرسل فكذبوهم
وقالوا لهم : أنتم فى ضلال بعيد .
- (٦) دعاء الملائكة عليهم بالبعد من رحمة الله وأطافه ، وكرمه وإحسانه .

الايضاح

(وللذين كفروا بزبهم عذاب جهنم وبئس المصير) أى قد سبق قضاؤنا ،
ووجرت سنتنا أن من أشرك بنا ، وكذب رسلنا ، فقد استحق عذاب جهنم ، وبئس
المآل والمقلب .

ثم ذكر فظائع أحوال هذه النار فقال :

(إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تقور) أى إذا طرح الجرمون فيها سمعوا
لها صياحا وصوتا كصوت المتغيظ من شدة الغضب ، وهى تغلى بهم كغلى
المرّجل بما فيه :

(تسكاد تميز من الغيظ) يقال فلان يتميز غيظا ، ويتعصف غيظا وغضبا

فطارت منه شعلة في الأرض وشعلة في السماء ، إذا وصفوه بالإفراط في الغضب ، من قبل أن الغضب إنما يحدث حين غليان دم القلب ، والدم حين الغليان يأخذ حجماً أكبر من حجمه ، فتتمدد الأوعية الدموية في البدن ، وكلما كان الغضب أشد كان تمددها أكثر حتى تكاد تنقطع وينفصل بعضها من بعض .

ثم بين سبحانه عدله في خلقه وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة وإرسال الرسول إليه فقال :

(كلما أتى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير؟) أى كلما طرح في جهنم جماعة من الكفار سألهم مالك وأعوانه من الزبانية سؤال تفرغ وتوبيخ : هل أتتكم رسل من ربكم تنذركم شديد بأسه ، وعظيم عقابه لمن عصاه وخالف أمره . ونحو الآية قوله تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا » . حينئذ يجيبهم هؤلاء مع التحسر على ما فات والندم على ما كان .

(قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أثم إلا في ضلال كبير) أى بلى جاءنا الرسول وأنذرنا فكذبناه وقلنا له : إن الله لم يوح إليك بشيء ولم يبعثك رسولا ، وما أنت إلا بشر مثلنا ، فما أنت فيما تدعى إلا مجانب للحق ، بعيد عن جادة الصدق .

ونحو الآية قوله تعالى : « حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا وَهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ؟ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ » .

ثم عادوا على أنفسهم بالملامة ، وندموا حيث لا ينفع الندم فقالوا :

(وقالوا: لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) أى وقالوا : لو كانت لنا عقول ننتفع بها ، أو آذان نسمع ما أنزل الله من الحق ، ما كنا على ما نحن عليه من الكفر بالله ، والاعتزاز باللذات التي كنا منهمكين بها في دنيانا ، فبؤنا بسخط ربنا و غضبه ، وحل بنا عقابه الأليم .

وقد نفوا عن أنفسهم السماع والعقل ، تنزيلاً لما عندهم منها منزلة العدم ، حين لم ينتفعوا بهما .

وقصارى ماسلف — إنهم قالوا : لو كنا سمعنا كلام النذير وقبلناه ، اعتماداً على ملاح من صدقه ، وفكرنا فيه تفكير المستبصر ، وعملنا به ما كنا في زمرة المعتدين .

ولكن هيهات هيهات ، فلا يجدى الاعتراف بالذنب ، ولا يفيد الندم ، فقد فات أوانه ، وسبق ما حتم به القضاء .

صاح هل ريت أو سمعت براع رد في الصرع ما قرى في الحلاب
ومن ثم أحل بهم سبحانه نعمته فقال :

(فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير) أى فاعترفوا بما كان منهم من تكذيب الرسل ، وأتى يفيدهم ذلك ؟ فبعداً لهم من رحمتي ، جحدوا أو اعترفوا ، فهو ليس بمن عندهم شيئاً ، فقد وقعت الواقعة ، وحل بهم من بأسى ما ليس له من دافع .

روى أحمد عن أبي البحتري الطائى قال : أخبرني من سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لن يهلك الناس حتى يُعذروا من أنفسهم » ، وجاء في حديث آخر : « لا يدخل أحد النار إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة » .

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢)
وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣)
أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ
الْأَرْضَ ذُلُولًا ، فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ
النُّشُورُ (١٥) .

شرح المفردات

بالغيب : أى غائبين عن أعين الناس ، بذات الصدور : أى بما فى النفوس ،
واللطيف : هو العالم بالأشياء التى يخفى علمها على العالمين ، ومن ثم يقال : إن لطف
الله بعباده عجيب ، ويراد به دقائق تدبيره لهم ، الخبير : أى بظواهر الأشياء
وبواطنها ، ذلولاً : أى سهلة منقادة يسهل عليكم السير فيها والانتفاع بها وفيها فيها ،
والمناكب : واحدها منكب ، وهو مجتمع ما بين العضد والكتف ، والمراد طرقها
ونجاساتها ، النشور : أى المرجع بعد البعث .

المعنى الجملى

بعد أن أوعد الكفار بما أوعدهم ، وبالغ فى ترهيبهم بما بالغ — وعد المؤمنين
بالمغفرة والأجر الكريم ، ثم عاد إلى تهديد الكافرين بأنه عليهم بما يصدر منهم
فى السر والعلن ، وأقام الدليل على ذلك بأنه هو الخالق ، فلا يخفى عليه شئ من
أمرهم ، بل يصل علمه إلى ظواهر أمورهم وبواطنها ، ثم عدد نعماء عليهم ، فذكر
أنه عبد لهم الأرض وذلالها لهم ، وهياً لهم فيها منافع من زروع وثمنار ومعادن ،
فليتمتعوا بما أوتوا ثم إلى ربهم مرجعهم ، وإليه بعثهم ونشورهم .

الإيضاح

(إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير) أى إن الذين يخافون
مقام ربهم فيما بينهم وبينه إذا كانوا غائبين عن أعين الناس ، فيكفون أنفسهم عن
المعاصى ، ويقومون بطاعته حيث لا يراهم إلا هو ، مراقبين له فى السر والعلن ،
واضعين نصب أعينهم ما جاء فى الحديث : «اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن
تراه فإنه يراك» يكفر عنهم ما ألموا به من الذنوب والآثام ، ويجزيهم جزيل

الثواب ، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار كغناء ما أسلفوا في الأيام الخالية .
وقد ورد في الحديث : « سبعة يظلمهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله —
وذكر منهم : ورجلا دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله ، ورجلا
تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » .

ثم نبه إلى أنه مطلع على السرائر فقال :

(وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور) أى إن عملكم وقولكم
على أى سبيل وجد فأنه عليم به ، فدوموا أيها الخاشعون على خشيتكم ، وأنبوا أيها
المفترون إلى ربكم ، وكونوا على حذر من أمركم .
روى عن ابن عباس أنه قال : « كان المشركون ينالون من النبي صلى الله عليه
وسلم فيؤخى إليه بما قالوا ؛ فقال بعضهم لبعض : أسروا قولكم كيلا يسمع رب
محمد فنزلت الآية » .

وقدم السر على الجهر الايذان بافتضاح أمرهم ووقوع ما يحذرون على كل حال
أسروا أو جهروا ، ولأن مرتبة السر مقدمة على مرتبة الجهر ؛ فما من شئ يجهر به
إلا وهو أومياؤه مضمرة في النفس .

وقوله « إنه عليم بذات الصدور » كالعلة والسبب لما قبله .

والخلاصة — إنه تعالى محيط بمضمرات النفوس وأسرارها الخفية المستكنة
في الصدور ، فكيف لا يعلم ما تسرون وما تجهرون به ؟ .

ثم نصب الأدلة على إحاطة علمه بجميع الأشياء فقال :

(ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) أى كيف لا يعلم السر والجهر من أوجد
بمكته ، وواسع علمه ، وعظيم قدرته ، جميع الأشياء ؛ وهو النافذ علمه إلى ما ظهر
منها وما بطن .

وكانه سبحانه يقول : ألا يعلم سركم وجهركم ، من يعلم الدقائق والخفايا ،
جمالها وتفصيلها ؟ .

ثم نبه إلى نعمه على عباده فقال :

(هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه) أى إن ربكم هو الذى سخر لكم الأرض وذلها لكم ، فجعلها قارة ساكنة ، لا تتمد ولا تضطرب بما جعل فيها من الجبال ، وأوجد فيها من العيون ، لسقيكم وسقى أنعامكم وزروعكم وثماركم ، وسلك فيها السبل ، فسافروا حيث شئتم من أقطارها ، وترددوا فى أرجائها ، لأنواع المكاسب والتجارات ، وكلوا مما أوجده لكم فيها بفضل من واسع الأرزاق — والسعى فى الأرزاق لا ينافى التوكل على الله . روى أحمد عن عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خصاصاً ، وتروح بطاناً » فأثبت لها غدواً وروحاً لطلب الرزق مع توكلها على الله عز وجل وهو المستخر الميسر المسبب .

وأخرج الحسكيم الترمذى عن معاوية بن قرة قال : « مرَّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه بقوم فقال : من أنتم ؟ فقالوا : المتوكلون ، قال : بل أنتم المتأكلون ، إنما المتوكل رجل أتى حبه فى بطن الأرض وتوكل على الله عز وجل » . وجاء فى الأثر : « إن الله يحب العبد المؤمن المحترف » .

وفى الآية إيماء إلى نذب التجارة والتكسب بجميع ضروبه ، وفيها تهديد للكافرين كأنه قال لهم : إني عالم بسركم وجهركم ، فاحترسوا من عقابي ، فهذه الأرض التى تمشون فى مناكبها ، أنا الذى ذلتها لكم ، وجعلتها سبباً لنفصكم ، وإن شئت خسفتها بكم ، وأنزلت عليها ألواناً من الحن والبلاء .

(وإليه النشور) أى وإليه المرجع يوم القيامة ، فينبغى أن تعلموا أن مكثكم فى الأرض ، وأكلكم مما رزقكم الله فيها ، مكث من يعلم أن مرجعه إلى الله ، ويستيقن أن مصيره إليه ، فاحذروا الكفر والمعاصى فى السر والعلن .

ءَأْمِنتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦)
 أَمْ أَمِنتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ
 نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨)
 أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ ،
 إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) .

شرح المفردات

الأمن : ضد الخوف ، من في السماء : هو ربكم الأعلى ، وخسف الله به الأرض
 غيبيه فيها ، ومنه قوله : « نَخْسِفُنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ » وتمور : أى تهتز وتضطرب
 حاصباً : أى ريحا شديدة فيها حصاب تهلككم ، نذير : أى إنذارى وتخويفى ،
 تكبير : أى إنكارى عليهم بإنزال العذاب بهم ، صاففات : أى باسطات أجنحتهن
 فى الجو حين طيرانها تارة ، ويقبضن : أى ويضممنها تارة أخرى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما أعدده للكافرين من نار تلتظى ، ووصف هذه النار بما تشيب
 من هوله الولدان — أردف ذلك بترهيبهم وتخويفهم بأنهم لا يأمنون أن يحل بهم
 فى الدنيا مثل ما حل بالمكذبين بالرسل من قبلهم : من خسف عاجل تمور به الأرض
 مورا ، أو ريح حاصب تهلك الحرث والنسل ، ولا تبقى منهم ديارا ولا نافخ نار ؛ ثم
 ضرب لهم المثل بما حل بالأمم قبلهم من ضروب الحن والبلاء ، فقد أهلكتمود
 بصاعقة لم تبقى ولم تذر ، وأهلكتم عاد بالريح الصرصر العاتية التى سخرها عليهم سبع
 ليال وثمانية أيام حسوما — متتابعة — وأهلك فرعون وقومه بالغرق فى بحر القلزم
 (البحر الأحمر) ثم لفت أنظارهم إلى باهر قدرته ، وعظيم منته على عباده ، فطلب منهم

أن يروا الطير وهي تبسط أجنحتها في الجو تارة ، وتضمنها أخرى بتسخير الله وتعليمه ما هي في حاجة إليه .

الإيضاح

(أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور) أى أأمنتم أن يخسف بكم الأرض كما خسفها بقارون ، فإذا هي تتحرك بكم حين الخسف ، وتبتلعكم وتمور فوقكم جيئة وذهابا .

ثم انتقل من الوعيد بهذا إلى الوعيد بوجه آخر فقال :

(أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير) أى بل أأمنتم أن يرسل عليكم ريحا فيها حصباء (حجارة صغار) كما فعل بقوم لوط ، وحينئذ تعلمون كيف يكون عقابي إذا شاهدتموه ، ولكن لا ينفعكم العلم حينئذ .

والخلاصة — كيف تأمنون من في السماء أن يصب عليكم العذاب من فوقكم أو من تحت أرجلكم ، وقد ذلل لكم الأرض ، وزين لكم السماء بمصابيح ، فإذا لم تشكروا النعم ، فأتم حريون بأن يرسل عليكم النقم .

ونحو الآية قوله تعالى : « قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ » وقوله : « أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَاكِيلًا » .

ثم لفت أنظارهم إلى ما حل بالأمم قبلهم ، لعله يكون فيه مزدجر لهم فقال :

(ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير) أى ولقد كذب من قبلهم من الأمم السالفة والقرون الغابرة من أرسلناهم من رسلنا فحاق بهم من سوء العذاب ما لاسرده ، وحل بهم من البأس ما لم يجدوا له دافعا على شدة هوله وعظيم نطاغته .

والخلاصة — إن الكفار قبلهم شاهدوا أمثال هذه العقوبات بسبب كفرهم ،

وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، ثم ذكر الدلائل على قدرته على إيصال أنواع العذاب بهم فقال :

(أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن) أى أغفلوا عن قدرتنا ولم ينظروا إلى الطير فوقهم وهم باسطات أجنحتهن فى الجو حين طيرانها تارة ، وقابضات لها أخرى ، وما يمسكهن فى الجو حين الصف والقبض على خلاف مقتضى طبيعة الأجسام الثقيلة من النزول إلى الأرض والانبجذاب إليها إلا واسع رحمة من برأهن على أشكال وخصائص هو العليم بها ، وألمهن حركات تساعد على الجرى فى الهواء المسافات البعيدة لتحصيل أقاتهن ، والبحث عن أرزاقهن ؟

ثم بين علة هذا فقال :

(إنه بكل شئ بصير) أى إنه سبحانه عليم بدقيق الأشياء وجليلها ، فيعلم كيف يبدع خلقها على السنن التى هو عليم بفائدتها لعباده .

والخلاصة — إنكم رأيتم بعض العجائب التى أبرزناها ، والحكم التى أظهرناها ، فهل أتم آمنون أن تدبر بحكمتنا عذابا نصبه عليكم صبا ، ولا معقب لحكمتنا ، ولا دافع لغضائنا .

أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ
 إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ
 إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى
 وَجْهِهِ أَهْدَى أَمْ مَنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ
 الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا
 مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤)

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ
وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٦) فَأَمَّا رَأْوُهُ زُلْفَةٌ سَيِّئَةٌ وَجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا
وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧) .

شرح المفردات

جند : أى عون ، ينصركم : أى يساعدكم فيدفع العذاب عنكم ، من دون
الرحمن : أى من غيره ، فى غرور : أى فى خداع من الشيطان الذى يعركم بأن
لا عذاب ولا حساب ، أمسك رزقه : أى بامسك المطر وغيره من الأسباب التى ينشأ
منها الرزق ، تلجوا : أى تهادنوا ، فى عتو : أى تكبر وعناد عن قبول الحق ، ونفور :
أى إعراض وتباعد منه ، مكبأ على وجهه : أى واقفا عليه ، سويا : أى معتدلا
منتصبا ، والأفئدة : العقول واحدها فؤاد ، ذرأكم : أى خلقكم ، الوعد : أى الحشر
الموعود ، إنما العلم : أى العلم بوقتته ، زلقة : أى مزدلفا قريبا ، سيئت وجوه الذين
كفروا : أى تبين فيها السوء والقيح إذ علتها الكآبة والقترة ، ويقال : ساء الشئ
يسوء إذا قبح ، تدعون : أى تطلبونه وتستهجلونه استمراء وإنكارا .

المعنى الجملى

بعد أن أبان للمشركين عجائب قدرته فيما يشاهدونه من أحوال الطير ، ووبخهم
على ترك التأمل فيها - أردفه بتوبيخهم على عبادتهم غيره تعالى ينتنون منه نصرا
ورزقا ، منكرا عليهم ما اعتقدوه ، مبينا لهم أنهم لا يصلون إلى ما أمّلوه ، وإلا فليبينوا
هذا الناصر والمعين والرازق إذا هو أمسك رزقه .

أما وقد وضح الحق لذى عينين فهم فى لجاج وعناد بعد وضوح الحجة وتبين
الحجة ، ثم ضرب مثلا يبين حالى المشرك والموحد ، فمثل حال الأول بحال من يمشى

منحنياً إلى الأمام على وجهه ، فلا يدرى أين يسلك ، ولا كيف يذهب ، فيكون حائراً ضالاً ، ومثل حال الثانی بحال من يمشى منتصب القامة على الطريق الواضح ، فيرى ما أمامه ويهتدى إلى ما يريد .

ثم أعقب هذا بذكر الدلائل على تفرده بالألوهية بذكر خلق الإنسان في الأرض وإعطائه نعمة السمع والبصر ، وأرشد إلى أن القليل من الناس شكور لهذه النعم . ثم أردف هذا بذكر سؤال المشركين للرسول عن ميقات البعث استهزاء به ، وإجابته بإيham بأن علمه عند الله وليس له من علمه شيء ، وإنما هو نذير مبين ، وذكر أنه حين تقوم القيامة ويعرف المشركون قرب وقوع ما كانوا ينكرون تعالو وجوههم غَبْرَةً ، ترهقها قَتْرَةٌ ، ويقال لهم : إن ما كنتم تستعجلون قد وقع ولا مرد له ، فماذا أنتم فاعلون ؟ .

الإيضاح

(أم من هذا الذي هو جند لكم ينصرم من دون الرحمن ؟ إن الكافرون إلا في غرور) أى بل من هذا الذى يعينكم فى دفع العذاب عنكم إذا أراد بكم سوءاً ؟ فما أنتم فى زعمكم أنكم محفوظون من النوائب بحفظ آلهتكم لا بحفظ الله لكم إلا فى ضلال مبين ، وقد أغواكم الشيطان ، وغرکم بهذه الأمانى الباطلة .

وفى قوله : (من دون الرحمن) إشارة إلى أنه برحمته أبقى الناس فى الأرض مع ظلمهم وجهالتهم ، إذ رحمته وسعت كل شيء ، فوسعت البرّ والفاجر ، والطير فى السماء ، والأنعام فى الأرض .

ثم انتقل من توبيخهم على دعوى ناصر سواه إلى توبيخهم على دعوى رازق غيره فقال :

(أم من هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه ؟) أى بل من ذا الذى يرزقكم إن

منع ربكم عنكم أسباب رزقه من الأمطار وغيرها ، أو وقف الهواء فلم تجر الرياح ،
أو جعل ماء البحر غورا ؟

والخلاصة — إنه لا جند لكم ينصرم إن هو عذبكم ، ولا رازق يرزقكم إن
هو حرمكم أرزاقكم .

وبعد أن حصص الحق قال مبينا عتوم وطغيانهم :
(بل لجوا في عتو و نفور) أى إنهم يعلمون ذلك حق العلم ويمبدون غيره ،
فما هذا منهم إلا عناد واستكبار و نفور عن قبول الحق ، وما جرأهم على هذا
إلا الشيطان الذى غرم بوسوسته ، فظنوا أن آلهتهم تنفعهم وتدفع الضر عنهم
وتقرّبهم إلى ربهم زلفى .

ثم ضرب مثلا يبين به الفارق بين حالى المشرك والموحد ، جعل فيه المقول
بصورة الحسوس ، ليكون أئين للحجة ، وأوضح لطريق الحجة فقال :

(أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى أم من يمشى سوياً على صراط مستقيم ؟)
أى أفمن يمشى وهو يتعثّر فى كل ساعة ، ويختر على وجهه فى كل خطوة ، لتوعر
طريقه ، واختلاف أجزائها انخفاضاً وارتفاعاً — أهدى سبيلاً وأرشد إلى المقصد الذى
فؤمه ، أم من يمشى سالماً من التخبط والعتار على الطريق السوى الذى لا اعوجاج
فيه ولا انحراف ؟ — فهذا المكب على وجهه هو المشرك الذى يمشى على وجهه
فى النار يوم القيامة ، والذى يمشى سوياً هو الموحد الذى يمشى على قدميه إلى الجنة .

وبعد أن امتنّ على عباده بما آتاهم من زينة السماء ، وتذليل الأرض ،
وإمسك الطير فى الهواء — أخذ يذكر ما هو أقرب إلينا وهو خلق أنفسنا فقال آمرا
رسوله أن يبين لهم ذلك :

(قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) أى قل لهم :
إن ربكم هو الذى برأكم وجعل لكم السمع لتسمعوا به المواعظ ، والأبصار لتتنظروا

بها بدائع صنع الخلاق ، والأفئدة لتتفكروا في كل هذا ، وتستفيدوا منه الفوائد العقلية والمادية .

ثم أبان أن الإنسان لنعمة ربه السكون فقال :
(قليلا ما تشكرون) أى قلما تستعملون هذه القوى التى أنعم بها ربكم عليكم فى طاعته ، وامتنال أوامرہ ، وترك زواجرہ ، وذلك هو شكرانہا .

ثم لخص هذا كله بقوله أمرًا رسوله :
(قل هو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون) أى قل لهم منها إلى خبطهم : إن ربكم هو الذى برأكم فى الأرض وبعثكم فى أرجائها على اختلاف ألسنتكم وألوانكم ، وأشكالكم وصوركم ، ثم يجمعكم كما فرقكم ، ويعيدكم كما بدأكم للحساب والجزاء ، فيجزى كل نفس بما كسبت ، إنه سريع الحساب .
وبعد أن ذكر أن إليه المرجع والمآب - أردفه بذكر مقالة الكافرين المنكرين لذلك فقال :

(ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) أى ويسألون الرسول استهزاء وتهكما : متى يقع ما تعدنا به من الخسف والحاصب فى الدنيا ، والحشر والعذاب فى الآخرة إن كنت صادقًا فيما تدعى وتقول ؟

فأمر رسوله أن يجيبهم بأن علم ذلك عند بارئ النسم فقال :
(قل إنما العلم عند الله) أى إنما علم ذلك على وجه التعيين عند ربى لا يعلمه إلا هو ، وقد أمرنى أن أخبركم بأن ذلك كائن لا محالة فاحذروه .
ونحو الآية قوله : « إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّى »

ثم بين وظيفة الرسول فقال :
(وإنما أنا نذير مبين) أى وإنما أنا منذر من عند ربى أبين لكم شرائعہ ، ما حلال منها وما حرم ، لتكونوا على بينة من أمركم ، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم .

ثم بين حالهم حين نزول ذلك الوعد الموعود فقال :
 (فلما رأوه زلقة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذى كنتم به تدعون)
 أى فلما رأوا العذاب الموعود قريبا « وكل آت قريب وإن طال زمنه » ساءم ذلك
 وعلت وجوههم الكآبة والخسران ، وغشيتها القتره والسواد ، إذ جاءهم من أمر الله
 ما لم يكونوا يحتسبون ، ويقال لهم على سبيل التفرغ والتوبيخ : هذا الذى كنتم
 تستعجلون وقوعه وتقولون لرسوله : « أَتُنَبِّأُ بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » .
 ونحو الآية قوله : « وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَالٌ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ . وَبَدَأَ لَهُمْ
 سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِى اللَّهُ وَمَنْ مَعِىَ أَوْ رَحِمَنَا ، فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ
 مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ،
 فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ؟ (٢٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ
 غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ؟ (٣٠) .

شرح المفردات

أرأيتم : أى أخبرونى ، غورا : أى غائرا فى الأرض لاتناله الدلاء ، معين : أى
 جار سهل المأخذ تصل إليه الأيدى .

المعنى الجملى

روى أن كفار مكة كانوا يدعون على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين
 بالهلاك كما حكى الله عنهم فى آية أخرى بقوله : « أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ قَتَرَبْصُ بِهِ
 رَبِّيبَ الْمَنُونِ » وقوله : « بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى

أَهْلِيهِمْ أَبَدًا» فنزلت الآية ، ثم أمره أن يقول لهم : إن هلاكى أورشحتى لا تحيركم من عذاب الله ، ثم أمره أن يقول لهم : إيا آمننا ربنا وتوكلنا عليه ، وستعلمون غدا من الهالك ؟ ثم أمره أن يقول لهم : إن غار ماؤمكم فى الأرض ولم تصل إليه الدلاء ، فمن يأتىكم بماء عذب زلال تشربونه ؟

الإيضاح

أجاب سبحانه عن تمنى المشركين موته صلى الله عليه وسلم ومن معه بوجهين :
 (١) قل أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معى أورشحن فمن يحير الكافرين من عذاب أليم (أى قل لهم مؤنخا : أخبرونى عن فائدة موئى لكم : سواء أمانتى الله ومن معى ، أو آخر أحننا ؛ فأى راحة لكم فى ذلك ، وأى منفعة لكم فيه ، ومن ذا الذى يحيركم من عذاب الله إذا نزل بكم ، أتظنون أن الأصنام أو غيرها تحيركم ؛ وهلا تمسكنم بما يخلصكم من العذاب ، فتقروا بالتوحيد والنبوة والبعث ؟
 وخلاصة هذا — إنه لا يحير لكم من عذاب الله بسبب كفركم الموجب لهذا العذاب — سواء هلكنا كما تمنون فقزنا برحة الله ، أو انتصرنا عليكم ورفعنا شأن الإسلام كما ترجو ، فكللا الأمرين فيه ظفر بما ينبغى ، ونيل لما نحب ونهى .
 وفى هذا إيمان إلى أمرين :

(١) حشهم على طلب الخلاص بالإيمان الخالص لله والإخبات إليه .
 (٢) إنه كان ينبغى أن يكون ما هم فيه شاغلا لهم عن تمنى هلاك النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين .

(ب) (قل هو الرحمن آمنابہ وعليه توكلنا) أى قل لهم : آمنابرب العالمين الرحمن الرحيم ، وعليه توكلنا فى جميع أمورنا كما قال : « فاعبده وتوكل عليه » وهو سيحيرنا من عذاب الآخرة .

وفى هذا تعريض بهم حيث اتكلوا على أولادهم وأموالهم « وقالوا نحن أكثر

أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا تَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ » وإشارة إلى أنهم لا يرحمون فى الدارين ، لأنهم كفروا بالله وتوكلوا على غيره .
ثم ذكر ما هو كالنتيجة لما قبله فقال :

(فستعلمون من هو فى ضلال مبين) أى فسيستبين لكم من الضالِّ منا ومن المهتدى . ولئن تكون العاقبة فى الدنيا والآخرة ؟ .
ولما ذكر أنه يجب التوكل عليه لاعلى غيره أقام الدليل على ذلك فقال أمرأ رسوله أن يقول لهم .

(قل أرايتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتىكم بما معين) أى قل لهم : أخبرونى إن ذهب ماؤكم فى الأرض ولم تصل إليه الدلاء ، فمن يأتىكم بما جار تشرّبونه عذبا زلالا . ولا جواب لكم إلا أن تقولوا هو الله ، وإذا فلم تعملون ما لا يقدر على شىء شريكا فى العبادة لمن هو قادر على كل شىء .

وفى هذا طلب إقرار منهم ببعض نعمه ، ليريهم قبح ما هم عليه من الكفر . وقصارى ذلك — إنه تعالى فضلائمه وكرما أنبع لكم المياه وأجراها فى سائر الأقطار بحسب حاجتكم إليها قلة وكثرة ، فله الحمد والمنة وصى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم .

ما حوته السورة من موضوعات

- (١) وصف السموات .
- (٢) بيان أن نظام العالم لا عوج فيه ولا اختلاف .
- (٣) وصف عذاب الكافرين فى الدنيا والآخرة .
- (٤) التذكير بخلق الإنسان ورزقه وأشبه ذلك .

سورة القلم

هي مكية إلا من آية ١٧ إلى ٣٣ ، ومن آية ٤٨ إلى آية ٥٠ مدنية .

وعدد آياتها ثنتان وخمسون ، نزلت بعد العلق .

وهي من أوائل ما نزل من القرآن بحكمة ، فقد نزلت : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ »

ثم هذه ، ثم المزمل ، ثم المدثر كما روى عن ابن عباس .

ومناسبتها لما قبلها :

(١) إنه ذكر في آخر (الملك) تهديد المشركين بتغيير الأرض ، وذكر هنا

ما هو كالدليل على ذلك وهو ثمرة البستان الذي طاف عليه طائف فأهلكه وأهلك أهله وهم ناعون .

(٢) إنه ذكر فيما قبل أحوال السعداء والأشقياء ، وذكر قدرته الباهرة وعلمه

الواسع ، وأنه لو شاء لحسف بهم الأرض أو أرسل عليهم حاصبا ، وكان ما أخبر به هو ما أوحى به إلى رسوله ، وكان المشركون ينسبونه في ذلك مرة إلى الشعر وأخرى إلى السحر وثالثة إلى الجنون — فبرأه الله في هذه السورة مما نسبوه إليه ، وأعظم أجره على صبره على أذاهم وأثني على خلقه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢)

وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَتَبْصُرُ

وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَيْكُمْ الْمَفْتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَلَّى عَنْ

سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧)

شرح المفردات

يسطرون : أى يكتبون ، ممنون : أى مقطوع ؛ يقال منه السير إذا أضعفه ،
والمتين : الضعيف ، المقتون : المجنون لأنه فتن ، أى ابتلى بالجنون .

المعنى الجملى

أقسم ربنا بالقلم وما يُسطَّر به من الكتب : إن محمدا الذى أنعم عليه بنعمة النبوة ليس بالمجنون كما تدَّعون ، وكيف يكون مجنونا والكتب والأقلام أعدت لكتابة ما ينزل عليه من الوحي .

وقد أقسم سبحانه بالقلم والكتب فتحا لِبَابِ التعلِيمِ بهما ، ولا يقسم ربنا إلا بالأُمُورِ العظامِ ؛ فإذا أقسم بالشمس والقمر ، والليل والنجم فإِنما ذلك لعظمة الخلق وجمال الصنع ، وإذا أقسم بالقلم والكتب فإِنما ذاك ليعمَّ العلم والعرفان ، وبه تهذب النفوس ، وترقى شئوننا الاجتماعية والعمرانية ، ونكون كما وصف الله « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » ثم وعد رسوله بما سيكون له من جزيل الأجر على صبره على احتمال أذى المشركين ، وأردف هذا بوصفه بحسن الخلق ورفقه بالناس امتثالا لأمره « خُذِ الْعَوْفَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » قالت عائشة رضى الله عنها : كان خلقه القرآن .

ثم هدد المشركين وتوعدهم بما سيتبين لهم من عاقبة أمره وأمرهم ، وأنه سيكون العزيز المهيب فى القلوب وسيكونون الأذلاء ، وأنه سيستولى عليهم ويأسر فرقا . ويقتل آخر ، وسيمهلون حينئذ من الجنون ؟ والله هو العليم بالمجانين الذين ضلوا عن سبيله ، والعقلاء الذين اهتمدوا بهديه .

الإيضاح

(ن) تقدم أن قلنا غير مرة إن أرجح الآراء في معنى الحروف المقطعة التي

وقعت في أوائل السور أنها حروف تنبيه نحو ألا ، وأما (والقلم وما يسطرون) أي أقسم بالقلم وما يكتب به من الكتب .

ثم ذكر المقسم عليه فقال :

(ما أنت بنعمة ربك بمجنون) أي إنك لست بالمجنون كما يزعمون ، فقد أنعم الله عليك بالنبوة وحضافة العقل وحسن الخلق .

ثم بين بعض نعمه عليه فقال :

(١) (وإن لك لأجراً غير ممنون) أي وإن لك الأجر العظيم والثواب الجزيل الذي لا ينقطع على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق وصبرك على الأذى ومقاساة الشدائد .

(٢) (وإنك لعلى خلق عظيم) فقد برأك الله على الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم وكل خلق كريم .

روى الشيخان عن أنس خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين سنة فما قال لي أف قط ولا قال لشيء فعلته لم فعلته ؟ ولا لشيء لم أفعله ألا فعلته ؟ »

وروى أحمد عن عائشة قالت : « ماضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده خادماً له قط ، ولا ضرب امرأة ، ولا ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله ولا خير بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثمًا ، فإذا كان إثمًا كان أبعد الناس من الإثم ، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه إلا أن تنتهك حرمة الله » .

وفي الآية رمز إلى أن الأخلاق الحسنة لا تكون مع الجنون، وكلما كان الإنسان أحسن أخلاقاً كان أبعد من الجنون.

ثم توعدهم بما يحل بهم من النكال والوبال في الدنيا والآخرة فقال :
(فستبصرون ويبصرون بأيكم الفتون؟) أى فستعلم أيها الرسول وسيعلم مكذبوك من الفتون الضال منكم ومنهم؟

ونحو الآية قوله تعالى : « سَيَلْمُونَ غَدًا مِّنَ الْكُذَّابِ الْأَشِيرِ » وقوله :
« وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » .

والخلاصة — ستبصرون ويبصرون غلبة الإسلام واستيلاءك عليهم بالقتل والأمر وهيبتك في أعين الناس أجمعين ، وصيرورتهم أذلاء صاغرين .

وهذا يشمل ما كان في بدر وغيرها من الوقائع التي كان فيها النصر للمبين للمؤمنين ، والحزى والهوان وذهاب صولة المشركين مما كان عبرة ومثلاً للآخرين .
ثم أكد ماتضمنه الكلام السابق من الوعد والوعيد فقال :

(إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) أى إن ربك سبحانه هو أعلم بن حاد عن الطريق السوى المؤدى إلى سعادة الدارين ، وهام في تيه الضلالة ، فلا يفرق بين ما ينفع وما يضر ، بل يحسب الضر نفعاً والنفع ضراً ، وأعلم بالمهتدين إلى سبيله ، الفائزين بكل مطلوب ، الناجين من كل محذور ، ويجازى كلاً من الفريقين بحسب ما يستحقون من العقاب والثواب .

فَلَا تُطِيعِ الْمُسَكِّذِينَ (٨) وَذُؤَا لَوْ تُذَهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) وَلَا تُطِيعِ كُلَّ خَلَافٍ مَّيِّبٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مَعْتَدٍ أَتَيْمٍ (١٢) عَثَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تَتَلَّىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَفَسِمَةٌ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦)

شرح المفردات

قال الليث : الإدهان : اللين والمصانعة والمقاربة في الكلام ، وقال المبرد : يقال داهن الرجل في دينه وداهن في أمره إذا أظهر خلاف ما يضر ، والخلاف : كثير الخلف في الحق والباطل ، والمهين : المحقر الرأي والتمييز ، والهواز : العياب الطعان ، والمشاء بالميم : أى الذى يمشى بالغميمة بين الناس ليفسد بينهم ، والفتاع للخير : البخيل ، والمعتمدى : الذى يتجاوز الحق ويسير فى الباطل ، والأثيم : الكثير الآثام والذنوب ، والعتلُّ : الشديد الخسومة الفظ الغليظ ، والزنيم : الذى يعرف بالشر والثوم كاتعرف الشاة بزمتها (الجزء المسترخى من أذنها حين تشق ويبقى كالشيء المعالق) سنسمه : أى نجعل له سمة وعلامة ، والخرطوم : الأنف .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر مقالة المشركين فى الرسول بنسبته إلى الجنون ، مع ما أنعم الله به عليه من الكمال فى الدين والخلق — أردفه بما يقوى قلبه ويدعوه إلى التشدد مع قومه ، مع قلة العدد وكثرة الكفار (إذ هذه السورة من أوائل ما نزل) فنباه عن طاعتهم عامة ، ثم أعاد النهى عن طاعة المكذبين الذين اتصفوا بالأخلاق الذميمة التى ذكرت فى هذه الآيات خاصة ، دلالة على قبح سيرتهم ، وضعة نفوسهم ، وتدسيتهم لها بعظيم الذنوب والآثام .

الإيضاح

(فلا تطع المكذبين) أى دم على ما أنت عليه من عدم طاعة المكذبين عامة وتشدد فى ذلك .

وفى هذا إيحاء إلى النهى عن مداراتهم ومداهنتهم ، استجلاباً لقلوبهم ، وجذباً لهم إلى اتباعه .

(ودّوا لوتدهن فيدهنون) أى ودّ المشركون لوتلين لهم فى دينك بالركون إلى آلهتهم ، فيدينون لك فى عبادة إلهك .

روى أن رؤساء مكة دعوه إلى دين آبائه فنهاه عن طاعتهم .

وخلاصة ذلك — ودوا لوتترك بعض ما أنت عليه مما لا يرضونه مصانعة لهم ، فيفعلون مثل ذلك ، ويتركون بعض ما لا ترضى ، فتلين لهم ويلينون لك ، وترك بعض الدين كله كفرًا بواحًا .

والمراد من هذا النهى التهييج والتشدد فى المخالفة والتصميم على معاداتهم .

ونحو الآية قوله : « وَلَوْلَا أَنْ تَبَتَّنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرَكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا . إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ، ثُمَّ لَا تَنجِدُ لَكَ عَلِيمًا نَصِيرًا » .

ثم خص من هؤلاء المكذبين أصنافا هانت عليهم نفوسهم فأفسدوا فطرتها ، تشهيراً بهم فقال :

(١) (ولا تطع كل حلاف) أى ولا تطع المكثار من الحلف بالحق وبالباطل .

والكاذب يتقى بأيمانه الكاذبة التى يجترئ بها على الله — ضعفه وهوانته أمام

الحق ، وفيه دليل على عدم استشعاره الخوف من الله .

والكذب أسُّ كل شر ، ومصدر كل معصية ، وكفى مزجراً لمن اعتاد

الحلف ، أن جعله المولى فاتحة المثالب ، وأسّ المعاييب .

(٢) (مهين) أى محتقر الرأى والتفكير .

(٣) (همّاز) أى عياب طعان يذكّر الناس بالمسكروه ، وينال من أعراضهم

بذكور مثالبهم .

(٤) (مشاء بنميم) أى نقال للحديث من قوم إلى قوم على وجه الإفساد بينهم .

وأصل النيمة الحركة الخفيفة ؛ ومنه أسكت الله نأتمته أى ما ينمّ عليه من حركته .

(٥) (مناع للخير) أى بخيل بما له ممسك له ، لا يوجد به لدى البأساء والضرراء فهو لا يدفع عوز المعوزين ، ولا يساعد المحتاجين البائسين ، ولا ينجد الأمة إذا حزبها الأمر ، وضاعت بها السبل ، كدفع عدو يهاجم البلاد ، أو دفع كارثة نزلت بها ، تحتاج إلى بذل المال .

(٦) (معتد) أى متجاوز لما حده الله من أوامر ونواهٍ ، فهو يخوض في الباطل خوضه في الحق ، ولا يتحرّج عن ارتكاب المآثم والمظالم .

(٧) (أثيم) أى كثير الآثام ديدنه ذلك ، فهو لا يبالي بما ارتكب ، ولا بما اجترح .

(٨) (عتلّ بعد ذلك) أى وفوق ذلك هو فظ غليظ جاف ، يعامل الناس بالغلظة والفظاظة .

(٩) (زئيم) أى معروف بالشرور والآثام ، كما تعرف الشاة بالزئمة ؛ روى عن ابن عباس أنه قال : هو الرجل يمرّ على القوم فيقولون رجل سوء .

ثم ذكر بعض ما ربما دعاه إلى طاعتهم فقال :

(أن كان ذا مال وبنين) أى لاتطع من هذه مثالبه من جرّاء ماله ، وكثرة أولاده وتقويته بهم ، فإن ذلك لا يجديه نفعاً عند ربه كما قال سبحانه : « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » .

ثم ذكر سبب النهى عن طاعته فقال :

(إذا تلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) أى إذا تلى عليه القرآن قال ما هو إلا من كلام البشر ، ومن قصص الأولين التي دُوّنت في الكتب ، وليس هو من عند الله .

ونحو الآية قوله تعالى : « ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا

مَمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَدْتُ لَهُ تَمَهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ

كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا . سَأَرَهُنَّ صُعُودًا . إِنَّهُ فَسَكَرَ وَقَدَّرَ . فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ .
ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ
إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ . إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ .

وبعد أن ذكر قبائح أعماله توعدّه فقال :

(سنسمه على الخرطوم) أى سنجعل له سمة وعلامة على أنفه ؛ والمراد أنا سنبين
أمره بيانا واضحاً حتى لا يخفى على أحد كما لا يخفى ذو السمة على الخرطوم .

وفى هذا إذلال ومهانة له ، لأن السمة على الوجه شين ، فما بالك بها فى أكرم
موضع ، وهو الأنف الذى هو مكان العزة والحية والأنفة ، ومن ثم قالوا : الأنفُ
فى الأنفِ ، وقالوا حمى أنفه ، وقالوا : هو شامخ العرينين ، وعلى عكسه قالوا فى الدليل :
جُدع أنفه ، ورُغِمَ أنفه ، قال جرير :

لَمَّا وَضَعْتُ عَلَى الْفَرَزْدَقِ مَيْسَمِي وَعَلَى الْبَعِيثِ جَدَعْتُ أَنْفَ الْأَخْطَلِ

وفى التعبير بلفظ (الخرطوم) استخفاف به ، لأنه لا يستعمل إلا فى القيل
والخنزير ، وفى استعمال أعضاء الحيوان للإنسان كالمشفر للشفة ، والظلف للقدم دلالة
على التحقير كما لا يخفى .

والخلاصة — سنذله فى الدنيا غاية الإذلال ، ونجعله ممقوتا مذموماً مشهوراً
بالشر ، ونسمه يوم القيامة على أنفه ، ليعرف بذلك كفره وانحطاط قدره .

إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا
مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَمْتُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ
وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتِ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١)
أَنْ أَعِدُّوا عَلَيْنَا حَرَثَكُمُ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ

يَتَخَفَتُونَ (٢٣) أَلَّا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْنَا
 عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ
 مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨)
 قَالُوا: سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ
 يَتَلَاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَى رَبُّنَا أَنْ
 يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَلِكَ الْعَذَابُ ، وَلَعَذَابُ
 الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) .

شرح المفردات

بلوناهم : أى امتحنناهم بألوان من البلاء والآفات ، والجنة : البستان، ليصرمئها :
 أى ليقطعن ثمار نخيلها ، مصبحين : أى وقت الصباح ، ولا يستثنون : أى ولا يثنون
 عما هموا به من منع المساكين ، طاف عليها طائف من ربك : أى طرقها طارق من
 عذاب ربك ، إذ أرسل عليها صاعقة من السماء أحرقتها ، كالصريم : أى كالليل
 البهيم فى السواد بعد أن احترقت ، فنادوا : أى نادى بعضهم بعضا ، أن اغدوا :
 أى اخرجوا غدوة مبكرين ، حرثكم : أى بستانكم ، صارمين : أى قاصدين الصرم
 وقطع الثمار ، يتخافتون : أى يتشاورون فيما بينهم بطريق الخفاطة والمناجاة حتى
 لا يسمهم أحد ، على حرد : أى على منع ، ضالون : أى قد ضللنا طريق جنتنا وما هذه
 هى ، محرومون : أى حرمتنا خيرها بجنايتنا على أنفسنا ، أوسطهم : أى أرجحهم رأيا ،
 تسبحون : أى تذكرون الله وتشكرونه على ما أنعم به عليكم ، يتلاومون : أى يلوم
 بعضهم بعضا على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين ، طاغين : أى متجاوزين
 حدود الله .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أن ذا المال والبنين كفر وعصى وتمرد لما آتاه الله من النعم - أردف هذا ببيان أن ما أوتيته إنما كان ابتلاء وامتحانا ليرى أياهم ذلك في طاعة الله وشكره ، فيزيد له في النعمة ، أم يكفر بها فيقطعها عنه ، ويصب عليه ألوان البلاء والعذاب ؟ كما أن أصحاب الجنة لما أتوا بهذا القدر اليسير من المعاصى دمر الله جناتهم ، فما بالك بمن حادّ الله ورسوله وأصر على الكفر والمعصية .

روى أن هذه الجنة كانت على فرسخين من صنعاء بأرض اليمن لرجل صالح وكان يترك المساكين ما أخطأه المنجّل ، وما في أسفل الأكداس ، وما أخطأه القطاف من العنب ، وما بقى على البساط تحت النخلة إذا صُرمت ، فكان يجتمع لهم من ذلك شيء كثير ، فلما مات الرجل قال بقوه إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر ، ونحن أولو عيال ، فخلفوا ليصرمونها وقت الصباح خفية عن المساكين فجازاهم الله بما يستحقون وأحرق جناتهم ، ولم يبق منها شيئا .

الإيضاح

(إنا بلوناكم كما بلونا أصحاب الجنة) أى إنا امتحنا كفار مكة بما تظاهر عليهم من النعم والآلاء ، وما رحمتهم به من واسع العطاء ، لنرى حالهم ، أيشكرون هذه النعم ويؤدون حقها ، وينميون إلى ربهم ، ويتبعون الداعى لهم إلى سبيل الرشاد وهو الرسول صلى الله عليه وسلم الذى بعثناه لهم هاديا وبشيرا ونذيرا ، أم يكفرون به ويكذبونه ، فيجحدون حق الله عليهم ، فيتليهم بمذاب من عنده وبيد تلك النعم جزاء كفرانهم وجحودهم ، كما اختبرنا أصحاب ذلك البستان الذين منعوا حق الله فيه ، وعزموا على ألا يؤدوا زكاته لبأس ولا فقير ، فحق عليهم من الجزاء ما هم له أهل ، ودمره شر التدمير .

(إذ أقسموا ليصر منها مصبحين ولا يستثنون) أى حين حلفوا ليجدن ثمرها غدوة حتى لا يعلم بهم سائل ولا فقير ، فيتوافر لهم ما كان يأخذه هؤلاء الفقراء ، ولم ينشوا عما هموا به .

ثم أخبر عما جازاهم به لكفرانهم بهذه النعم ومنعهم حق الفقراء فقال :
(فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم) أى فطرق تلك الجنة طارق من أمر الله ليلا وهم نيام ، إذ أرسل عليها صاعقة فاحترقت وصارت تشبه الليل البهيم فى السواد .

أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياكم والمعصية فإن العبد ليذنب الذنب الواحد فينسى به الباب من العلم ، وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل ، وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقا قد كان هيء له ، ثم تلا : فطاف عليها طائف الآية ، قد حرموا خير جنهم بذنبهم » .

وقد غفلوا عما قدر لهم فلم يدروا مما كان شيئا ، ومن ثم أرادوا تنفيذ ما عزموا عليه .

(ففتادوا مصبحين . أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين) أى فنادى بعضهم بعضا هاتوا واذهبوا غدوة لقطع ثمار بستانكم إن كنتم فاعلين .

وقد أحكموا التدبير وأخفوا الأمر جد الخفية حتى لا يسمع لهم أحد كما قال :

(فانطلقوا وهم يتخافتون . ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين) أى فمضوا إلى حرثهم يتسارون ويقول بعضهم لبعض : لا تمكنوا اليوم مسكيننا من الدخول فيها .
(وغدوا على حرث قادرين) أى وغدوا مصممين على منع المساكين وحرمانهم وهم قادرون على نفعهم ، فهم قد تعجلوا الحرمان وكان أولى بهم أن تكون همهم متوجهة إلى النفع الذى هم قادرون عليه .

ولكن واخبية أملاه ، وواضياع مسعاهم ، ويا هول ما رأوه مما لاتصدقه العين ولا يحظر لهم ببال ، بستان كان بالأمس عامرا زاخرا بالخير والبركة أصبح قاعاً صفصفا قد تغيرت معالمه ، ودرست رسومه ، حتى تشككوا فيه حين رأوه كما قال سبحانه :

(فلما رأوها قالوا إنا لضالون) أى فلما صاروا إلى بستانهم ورأوه محترقا أنكروه وشككوا فيه وقالوا : أبستاننا هذا أم نحن ضالون طريقه ؟

ولكن بعد أن تبينت لهم معالمه واستيقنوها عادوا على أنفسهم باللامه وقالوا : (بل نحن محرومون) أى لسنا بضالين ، بل نحن قد حرمتنا خيره بجنائقتنا على أنفسنا ، بشؤم عزمنا على البخل ومنع مساعدة البائسين والمعوزين ، وندموا على ما فرط منهم حيث لا يفتع الندم ، كما يرشد إلى ذلك قوله سبحانه حاكيا عنهم .

(قال أوسطهم : ألم أقل لكم لولا تسبحون) أى قال أرجحهم رأيا ، وأحسنهم تدبيرا : ألم أقل لكم : هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أولاكم من النعم ، فتؤدوا حق البائس الفقير ، ليبارك لكم فيما أنعم وتفضل ، لكنكم أعرضتم عما أدليت لكم به من الرأى وضربتم به عرض الحائط .

وبعد اللتيا والتي ، وبعد ضياع الفرصة تبين لهم خطأ ما كانوا عزموا عليه ، واعترفوا بذنوبهم كما حكى عنهم سبحانه بقوله :

(قالوا سبحان ربنا) أى تنزيها لربنا أن يكون ظلما فيما صنع بجنائتنا .

ثم أكدوا ندمهم واعترافهم بالذنب تحميها لتوبتهم وهضا لأنفسهم فقالوا :

(إنا كنا ظالمين) لأنفسنا بجرماننا البائس الفقير ، ولكن هيئات فقد ضاعت الفرصة ، وحل مكانها القصة ، وهكذا شأن الإنسان .

وبعد أن حدث ما حدث ألتى كل منهم تبعة ما وقع على غيره وتشاحنوا ،

وهذا ما أشار إليه سبحانه بقوله :

(فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون) فيقول هذا لهذا : أنت الذي أشرت علينا بهذا الرأي ، ويقول ذاك لهذا : أنت الذي خوفتنا الفقر ، ويقول الثالث لغيره : أنت الذي رغبتني في جمع المال .

ثم نادوا على أنفسهم بالويل والثبور كما أشار إلى ذلك سبحانه حاكياً عنهم :
(قالوا يا ويلنا) أى قالوا : أقبل أيها الهلاك فلا نستحق غيرك ، ثم بينوا علة هذا الدعاء بقولهم .

(إنا كنا طاغين) أى إنا اعتدينا على ما حده الله لنا من الإحسان على الفقراء والمعوزين ، وتركنا الشكر على نعمه علينا .

ثم رجعوا إلى الله وسألوه أن يعوضهم خيراً من جنتهم فقالوا :
(عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون) أى لعل الله يعطينا بدلاً هو خير منها ، بتوبتنا من زلاتنا ، ويكفر عنا سيئاتنا ، إنا راجون عفوه ، طالبون الخير منه .

روى عن مجاهد أنهم تابوا فأبدلهم الله خيراً منها
(كذلك العذاب) أى وهكذا عذاب من خالف أمر الله وبجمل بما آتاه وأنعم به عليه ومنع حق البائس الفقير .

وإذا كانت هذه حال من فعل الذنب اليسير كأصحاب الجنة ، فما بالكم بذنوب من يعاند الرسول وينصر على الكفر والمعصية ؟

وبعد أنت أبان لهم أن عذاب الدنيا كما سمعتم ورأيتم أشار إلى عذاب الآخرة فقال :

(ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) أى إن عذاب الآخرة أشد وأنكى من عذاب الدنيا ، فما عذاب هذه إلا هلاك الأموال والثمرات ، وعذاب تلك نار

وقودها الناس والحجارة ، فلو كانوا من ذوى العلم والمعرفة لارتدعوا عن غيرهم وتابوا إلى رشدهم .

وفى هذا نعى عليهم بالغفلة ، وأنهم ليسوا من أرباب النهى والمعرفة .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْمَلُ الْمُسْلِمِينَ
 كَالْمُجْرِمِينَ ؟ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟ (٣٦) أَمْ لَكُمْ
 كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ
 آيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلَّهْمُ
 أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا
 صَادِقِينَ (٤١) يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ
 فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ
 إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣)

شرح المفردات

تدرسون : أى تقرأون ، تخبرون ، أى تختارون ، آيمان : أى عهود ، بالغة :
 أى متفاهية فى التوكيد موثقة ، إلى يوم القيامة : أى ثابتة لكم علينا إلى هذا اليوم ،
 أيهم بذلك زعيم : أى أيهم كفيل بذلك الحكم وأن لهم فى الآخرة ما للمسلمين فيها ،
 كشف الساق : يراد به الشدة ، وقد كانوا إذا ابتلوا بشدة كشفوا عن الساق .

قد شمرت عن ساقها فشدوا . وجدّت الحرب بكم مجدّوا .

روى عن ابن عباس أنه سئل عن هذه الآية فقال : إذا خنى عليكم شيء من

القرآن فابتغوه فى الشعر فإنه ديوان العرب . أما سمعتم قول الراجز :

صبراً عناقٍ إنه شرٌّ باقٍ

قد سن لي قومك ضربَ الأعتاقِ وقامت الحرب بنا على ساقٍ
خاشعة أبصارهم : أي ذليلة ، سالمون : أي أصحاب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حال أهل الجنة الدنيوية وما أصابهم فيها من النقمة حين عصوه وخالفوا أمره - أعقب هذا ببيان أن لمن اتقاه وأطاعه جنات النعيم التي لا تبديد ولا تغنى في الدار الآخرة ، ثم ردّ على من قال من الكفار : إن صح أنا نبعث كما يزعم محمد وصحبه ، لم يفضلونا بل نكون أحسن منهم حالا ، لأن من أحسن إلينا في الدنيا يحسن إلينا في الآخرة - بأنكم كيف تسوؤون بين المطيع والعاصي فضلا عن أن تفضلوا العاصي عليه ، ثم أخذ يقطع عليهم الحجّة فقال : أتلقيتم كتابا من السماء فقرأتم فيه أنكم تختارون ما تشاءون ، وتكونون وأتم مجرمون كالسالمين الصالحين ، أم أعطيناكم عهدا أكدناها بالأيمان فاستوثقتم بها فهي ثابتة لكم إلى يوم القيامة ؟ أم لكم أناس يذهبون مذهبكم في هذا القول ، وإن صح أن لكم ذلك فلتأتوا بهم يوم يشتد الأمر ، ويصعب الخطب ، وتدعونهم حينئذ إلى السجود فلا يستطيعون ، وتكون أبصارهم خاشعة ذليلة ، وقد كانوا يدعون في الدنيا إلى السجود وهم سالمون أصحاب ، فيأتون كل الإباء .

الإيضاح

(إن المتقين عند ربهم جنات النعيم) أي إن لمن اتقوا ربهم فأدّوا فرائضه ، واجتنبوا نواهيه ، جناتٍ ينعمون فيها النعيم الخالص الذي لا يشوبه كدر ينقصه كما يشوب جنات الدنيا .

قال مقاتل : لما نزلت هذه الآية قال كفار مكة للمسلمين : إن الله فضلنا عليكم في الدنيا فلا بد أن يفضلنا عليكم في الآخرة ، فإن لم يحصل التفضيل فلا أقل من المساواة ، فرد الله عليهم ما قالوا وأكد فوز المتقين بقوله :

(أفجعل المسلمين كالمجرمين ؟) أى أفنخيف في الحكم ونسوى بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء ، كلا ورب الأرض والسماء .

ثم عجب من حكمهم واستبعده ، وبين أنه لا يصدر من عاقل فقال :

(مالكم كيف تحكمون ؟) أى ماذا حصل لكم من فساد الرأى وبخيل العقل حتى قاتم ما قاتم ؟

ثم سدد عليهم طريق القول ، وقطع عليهم كل حجة يستندون إليها فيما يدعون فقال :

(أم لكم كتاب فيه تدرسون . إن لكم فيه لما تخيرون) أى أفبايديكم كتاب نزل من السماء تدرسونه وتتداولونه ، ينقله الخلف عن السلف ، يتضمن حكما مؤكدا كما تدعون ، أن لكم ما تختارون وتشتهون ، وأن الأمر مفوض إليكم لا إلى غيركم ؟

وخلاصة هذا — أفسدت عقولكم حتى حكمت بهذا ، أم جاءكم كتاب فيه تخييركم وتفويض الأمر إليكم ؟ .

(أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون) أى أم معكم عهد منا مؤكدة لا يخرج من عهدها إلى يوم القيامة أنه سيحصل لكم كل ما تهوون وتشتهون ؟ .

وخلاصة ذلك — أم أقسمنا لكم قسما إن لكم كل ما تحبون ؟

ثم طلب إلى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يسألهم على طريق التوبيخ والتفريع فقال :

... (سلمهم أيهم بذلك زعيم) الزعيم عند العرب الضامن والمتكلم عن القوم ، أى تقل لهم من الكفيل بتنفيذ هذا ؟

(أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين) أى أم لهم ناس يشاركونهم فى هذا الرأى ، وهو التسوية بين المسلمين والجرمين ؟ وإن كان كذلك فليأتوا بهم إن كانوا صادقين فى دعواهم .

وقصارى هذا الحجاج - نفى جميع ما يمكن أن يتعلقوا به فى تحقيق دعواهم ، فنبه أولاً إلى نفى الدليل العقلى بقوله : « مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ » ثم إلى نفى الدليل الثقلى بقوله : « أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ » ثم إلى نفى الوعد بذلك - ووعد الكريم دين عليه - بقوله : « أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا » ثم إلى نفى التقليد الذى هو أوهن من حبال القمر بقوله : « أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ » .

(يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون) أى فليأتوا بهؤلاء الشركاء ليعاونوهم إذا اشتد الهول وعظم الأمر يوم القيامة .

وحيثئذ يدعى هؤلاء الشركاء إلى السجود توبيخاً لهم على تركهم إياه فى الدنيا فلا يستطيعون ، فتزداد حسرتهم وندامتهم على ما فرطوا فيه حين دُعوا إليه فى الدنيا وهم سالمون أصحاء فلم يفعلوا .

(خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة) أى يدعون إلى السجود وتكون أبصارهم خاشعة وتغشاهم ذلة فى ذلك اليوم ، وقد كانوا فى الدنيا متكبرين متجبرين ، فعوقبوا بتقيض ما كانوا عليه .

(وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون) أى إنهم لما دعوا إلى السجود فى الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامة أبدانهم ، عوقبوا فى الآخرة بعدم قدرتهم عليه ، فإذا تجلى الرب سجد له المؤمنون ، ولم يستطع أحد من الكافرين والمنافقين

أن يسجد ، بل يعود ظهر أحدكم طبقا واحدا ، فكلامهم بالسجود خرا لفقاه بعكس السجود فى الدنيا .

وقال النخعى والشعبى : المراد بالسجود الصلوات المفروضة ، وقال آخرون : إن المراد جميع العبادات .

فَذَرَّنِي وَمَنْ يُكْذِبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ ، سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠) وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٥٢) .

شرح المفردات

تقول: ذرنى وإياه : أى كلّه إلى فاينى أ كفيكه ؛ ويقال استدرجه إلى كذا : إذا استنزله إليه درجة فدرجة حتى يورطه فيه ، وأملى لهم : أى أمهلهم وأطيل لهم المدة ؛ يقال أملى الله له : أى أطال له الملاوة وهى المدة من الزمن ، والكيد هنا : الإحسان ، والمغرم : الغرامة المالية ، مثقلون : أى مكلفون أحمالا ثقلا فهم بسببها يعرضون عنك ، الغيب : هو ما كتب فى اللوح واستأثر الله بعلقه ، يكتبون : أى يحكمون على الله بما شاءوا وأرادوا ، حكم ربك : هو إمامهم وتأخير نصرته عليهم ،

صاحب الخوت : هو يونس عليه السلام ، مكظوم ، أى مملوء غيظا ، من قولهم : كظم السقاء إذا ملاه ، والعرء : الأرض الخالية ، فاجتباها : أى اصطفاها ، يزلقونك : أى يزلون قدمك ، يقولون : نظر إلى نظرة كاد يصرعنى ، أو كاد يأكلنى : أى لو أمكنه بنظره أن يصرعنى أو يأكلنى لفعلى ، قال شاعرهم :

يتقارضون إذا التقوا في موطنٍ نظرا يزلّ مواطن الأقدام
والذكر : القرآن ، ذكر : أى تذكر ويبيان لجميع ما يحتاجون إليه .

المعنى الجملى

بعد أن خوّف الكفار من هول يوم القيامة — خوّفهم بما فى قدرته من القهر فقال لرسوله مؤثبا لهم وموحيًا : خلّ بينى وبين من يكذب بهذا القرآن ، فإنى عالم بما ينبغى أن أفعل بهم ، فلا تشغل قلبك بهم ، وتوكل علىّ فى الانتقام منهم ، إنا سندنيهم من العذاب درجة فدرجة ، ونورطهم فيه بما نوليهم من النعم ، ونرزقهم من الصحة والعافية ، فتزداد معاصيهم من حيث لا يشعرون ، فكلمها جدّوا معصية جددنا لهم نعمة ، وأنسيناهم شكرها .

ثم قال لرسوله : ماذا ينعمون منك ؟ أنت تسألهم أجرا على تبليغ الرسالة ثقّل عليهم فامتنعوا عن إجابة دعوتك ؟ أم عندهم علم الغيب المكتوب فى اللوح المحفوظ فهم يكتبون منه ما يحكمون به ؟ كلا ، لا هذا ولا ذلك ، إذا فالقوم معاندون ، فلم يبق إلا أن تصبر لحكم ربك ، وقد حكم بأمهالهم وتأخير نصرتك ، وهم إن أهملوا فلن يهملوا .

ثم نهى رسوله أن يكون كيونس عليه السلام حين غضب على قومه فنارقههم ونزل إلى السفينة فابتلعه الخوت ودعا ربه وقال : « لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » وهو مملوء غيظا وحنقا .

ثم أخبر رسوله بأن الكافرين ينظرون إليه شذرا حين يسمعون منه القرآن ، ويقولون حسدا على ما آتاه من النبوة : «إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ» تنفيرا منه ومن دعوته ، وما القرآن إلا عظة للجن والإنس جميعا ، لا يفهمها إلا من كان أهلا لها .

الإيضاح

(ذرى ومن يكذب بهذا الحديث) أى كل أيها الرسول أمره هؤلاء المكذبين بالقرآن إلى ، ولا تشغل قلبك بشأنهم فانا أ كفيك أمرهم ، وهذا كما يقول القائل لمن يتوعد رجلا : دعنى وإياه ، وختى وإياه ، فانا أعلم بمسأته والانتقام منه .

وفي هذا تسلية لرسوله وتهديد للمشركين كما لا يخفى .
وخلاصة ذلك — حسبك انتقاما منهم أن تسلك أمرهم إلى وتختلى بيني وبينهم .
ثم بين كيف يكون ذلك التعذيب المستفاد إجمالا من الكلام السابق فقال :
(سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) أى سنستنزهم إلى العذاب درجة فدرجة بالإمهال وإدامة الصحة وازدياد النعمة من حيث لا يعلمون أنه استدرج ، بل يزعمون أنه إيثار وتفضيل لهم على المؤمنين ، مع أنه سبب في هلاكهم في العاقبة .

ونحو الآية قوله : «أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا مُنِّدُهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَيْنَ . نَسَارِعَ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ؟ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ» وقوله : «فَلَمَّا تَسَوَّا مَآذَ كَرُّوا بِهِ فَتَحْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلَسُونَ» .

(وأملى لهم إن كيدي متين) أى وأوخرهم وأنسى في آجالهم ملاوة من الزمان على كفرهم وتوهمهم على لتتكامل حججى عليهم ، وإن كيدي لأهل الكفر لقوى شديد .

وسمى سبحانه إحسانه إليهم كيذا «والكيذ ضرب من الاحتيال» لكونه في صورته ، من قبل أنه تعالى يفعل بهم ما هو نفع لهم ظاهرا وهو يريد بهم الضرر .

لما علم من خبث طويبتهم ، وسوء استعدادهم وتماديهم في الكفر وتدسيتهم أنفسهم بالآثام والمعاصي .

وفي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله تعالى لم يلبى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، ثم قرأ : وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » .

ثم ذكر من الشبه ما ربما يكون هو المانع لهم عن قبول الحق فقال :

(١) (أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون) أى بل أنسأل أيها الرسول هؤلاء المشركين بالله على ما آتيتهم من النصيحة والدعوة إلى الحق أجراً دنيوياً ؟ فهم من غرّم ذلك الأجر مُثَقَلُونَ بأدائه ، فتحاموا لذلك قبول نصيحتك ، وتجنّبوا لعظم ما أصابهم من الغرم الدخول في الدين الذى دعوتهم إليه .

وخلاصة ذلك — إن أمرهم لعجيب ، فإنك لتدعوهم إلى الله بلا أجر تأخذه منهم ، بل ترجو ثواب ذلك من ربك ، وهم مع ذلك يكذبونك فيما جئتهم به من الحق جهلاً وعناداً .

(٢) (أم عندهم الغيب فهم يكتبون) أى أم عندهم اللوح المحفوظ الذى فيه نبأ ما هو كائن ، فهم يكتبون ما يريدون من الحجج التى يزعمون أنها تدل على قولهم ، ويخاصمونك بما يكتبون من ذلك ، ويستغنون بذلك عن الإجابة لك ، والامتنال لما تقول .

ولما بالغ في تزييف طريق الكافرين ، وزجرهم عما هم عليه ، أمر رسوله بالصبر على أذاهم فقال :

(فاصبر لحكم ربك) أى فاصبر على قضاء ربك وحكمه فيك وفي هؤلاء المشركين ، وامض لما أمرك به ، ولا يثنك عن تبليغ ما أمرت بتبليغه — تكذيبهم وأذاهم لك .

روى أنه عليه الصلاة والسلام أراد أن يدعو على ثقيف لما آذوه حين عرض نفسه على القبائل بمكة فنزل قوله تعالى :

(ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم) أى ولا تكن كيونس ابن متى حين ذهب مغاضبا لقومه ، فكان من أمره ما كان من ركوب البحر والتقام الحوت له ، وشروده به فى البحار ، فنادى ربه فى الظلمات من بطن الحوت وهو مملوء غيظا من قومه إذ لم يؤمنوا حين دعاهم إلى الإيمان .

وجاء فى الآية الأخرى : « فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لِي إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ » .

(لولا أن تداركه نعمة من ربه لنمذ بالعراء وهو مذموم) أى لولا أن تداركته نعمة الله بتوفيقه للتوبة وقبولها منه ، ل طرح بالفناء من بطن الحوت وهو مليم مطرود من الرحمة والكرامة .

(فاجتباها ربه فجعله من الصالحين) أى ولكن تداركته نعمة من ربه فاصطفاه وأوحى إليه وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون ، وجعله من المرسلين العاملين بما أمرهم به ربهم ، المنتهين عما نهاهم عنه .

ثم بين عداوتهم له ، فذكر أنها سرت من القلب إلى النظر فقال :
(وإن يكاد الذين كثفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر) أى إنهم لشدة عداوتهم ينظرون إليك شزرا ، حتى ليكادون يزلون قدمك فتصدع حين سمعوك تتلو كتاب الله ، حسداً لك وبقضا .

ويرى بعضهم أن المراد إنهم يكادون يصيبونك بالعين ، وروى أنه كان فى بنى أسد عيتان ، فأراد بعضهم أن يعين رسول الله صلى الله عليه وسلم فعصمه الله وأنزل عليه هذه الآية .

وقد صح هذا الحديث من عدة طرق: « إن العين لتدخل الرجل القبر ، والجل القدر ». وروى أحمد عن أبي ذر مرفوعا : « إن العين لتولع بالرجل بإذن الله حتى يصعد حالقا ثم يتردى منه » .

والأحاديث في هذا الباب كثيرة ، وعن الحسن : رُقِيَة العين هذه الآية .
وسر هذا أن من خصائص بعض النفوس أن تؤثر في غيرها بوساطة العين ، لما فيها من كهربية خاصة يكون بها تأثير فيما تنظر إليه ، والله يخصص ما شاء بما شاء .
وشبيه بهذا تأثير بعض النفوس في بعض بوساطة التنويم المغناطيسي الذي أصبح الآن فنا له أساليب علمية لا يمكن إنكارها .

(ويقولون إنه لجنون) أى ويقولون لخيرتهم في أمره ، وجهلهم بما في تضاعيف القرآن من عجائب الحكم ، وبدائع العلوم : إنه لجنون .

(وما هو إلا ذكر للعالمين) أى يقولون ما قالوا ، وما هو إلا تذكير وبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ، أفيكون من أنزل عليه مثل هذا وهو مطلع على أسراره ، محيط بجميع حقائقه خبيرا ، ممن ينطبق عليه مثل هذا الوصف الذى قاله ، أم يكون مثل هذا من أدل الدلائل على كمال الفضل والعقل ؟

والله أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

ما تضمنته هذه السورة من موضوعات

- (١) محاسن الأخلاق النبوية إلى قوله : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » .
- (٢) سوء أخلاق بعض الكفار جزاؤهم من قوله : « فَسُبُّرٌ وَيُبْصِرُونَ » إلى قوله : « سَسِمَهُ عَلَى الْخُرطومِ » .
- (٣) ضرب المثل لهم بأصحاب الجنة من قوله : « إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ إِلَى قَوْلِهِ «لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ»
- (٤) تفرغ الجرمين وتوبيخهم وإقامة الحجج عليهم .
- (٥) تهديد المشركين المكذبين بالقرآن بقوله : « فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ الْحَجَّ » .
- (٦) أمره صلى الله عليه وسلم بالصبر على أذى المشركين حتى لا يكون كصاحب الحوت .

سورة الحاقة

هي مكية ، وآياتها ثنتان وخمسون ، نزلت بعد سورة الملك .
ومناسبتها لما قبلها :

- (١) إنه وقع في ن ذكر يوم القيامة مجلا ، وهنا فصل نبأه وذكر شأنه العظيم .
(٢) إنه ذكر فيما قبلها من كذب بالقرآن وما توعد به ، وهنا ذكر أحوال أمم كذبوا الرسل وما جرى عليهم ، ليزدجر المكذبون المعاصرون له عليه الصلاة والسلام .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ
ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ
فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ
أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ مُنْخَلٍ خَاوِيَةٍ (٧)
فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ
بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَمَصَّوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (١٠) إِنَّا
لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكَرَةً
وَتَعْمِيهَا أَذُنًا وَعَاقِبَةً (١٢)

شرح المفردات

الحاقة : من حق الشيء ، إذا ثبت ووجب ، أى الساعة الواجبة الوقوع ، الثابتة الجبىء وهى يوم القيامة ، ما الحاقة : أى أى شئ هـى ؟ تفخيا لشأنها ، وتعظيما لهولها ، وما أدراك ما الحاقة : أى أى شئ أعلمك ماهى ؟ فلا علم لك بحقيقتها ، إذ بلغت من الشدة والهول أن لا يبلغها علم المخلوقين ، والقارعة : هى الحاقة التى تفرع قلوب الناس بالخافة والأهوال ، وتفرع الأجرام بالانفطار والانتشار ، وسميت قارعة لشدة هولها ، إذ القرع ضرب شئ بشئ ، والطاغية : هى الواقعة التى تجاوزت الحد فى الشدة والقوة كما قال « إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ » أى تجاوز الحد ، والمراد بها الصاعقة ، والصرصر : الشديدة الصوت التى لها صرصرة ، عاتية : أى بالغة منتهى القوة والشدة ، سخرها عليهم : أى سلطها عليهم ، خسوما : أى متتابعة واحدها حاسم ، والحسم : القطع والاستئصال ؛ وسمى السيف حساما لأنه يحسم العدو عما يريد من عداوته ، وصرعى : واحدهم صريع أى ميت ، وأعجاز : واحدها عجز ، وهو الأصل ، وخاوية : أى خالية الأجواف لاشئ فيها ، والباقية : البقاء ، والمؤتسكات : أى المنقلبات وهى قرى قوم لوط ، جعل الله عاليها سافلها بالزلزلة ، والخطائنة : الخطأ ، رابية : من ربا الشئ إذا زاد أى الزائدة فى الشدة ، وطفى الماء : تجاوز حده وارتفع ، حملنا كم : أى حملنا آباءكم وأتم فى أصلابهم ، والجارية : السفينة التى تجرى فى الماء ، وتعيها : أى تحفظها ، وتقول لكل ما حفظته فى نفسك : وعيته ، وتقول لكل ما حفظته فى غير نفسك : أوعيته ؛ فيقال أوعيت المتاع فى الوعاء قال : «والشرُّ أخبتُ ما أوعيت من زاد» .

المعنى الجملى

ذكر سبحانه أن يوم القيامة حق لا شك فيه ، وأن الأمم التى عصت رسلها وكذبتهم ، أصابها الهلاك والاستئصال بألوان من العذاب ، فتمود أهلكت بالصاعقة

وعاد أهلكت بریح صرصر عاتية سلطها عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتابة ،
فصاروا صرعى كأنهم أصول نخل جوفاء ، لم يبق منهم دينار ، ولا نافع نار ؛ وكذلك
أهلك فرعون وقومه بالفرق ، وقوم لوط بالزلزال الشديد الذى قلب قراهم وجعل
عاليها سافلها ، وأهلك قوم نوح بالطوفان .

الإيضاح

(الحاققة ما الحاققة ؟) هذا أسلوب من الكلام يفيد التفخيم والمبالغة فى الغرض
الذى يساق له ، فكأنه قيل : أى شئ هى فى حالها وصفتها ؟ فهى لا تحيط بها
العبارة ، ولا يبلغ حقيقتها الوصف .

ثم زاد سبحانه فى تفضيع شأنها ، وتفخيم أمرها ، وتهويل حالها فقال :
(وما أدراك ما الحاققة ؟) أى أى شئ أعلمك ما هى ؟ فهى خارجة عن دائرة
علوم المخلوقات ، أعظم شأنها ، ومدى هولها وشدتها ، فلا تبلغها دراية أحد ولا وهمه ،
فكيفما قدرت حالها ، فهى فوق ذلك وأعظم .

قال سفيان بن عيينة : كل ما فى القرآن قال فيه : وما أدراك ، فإنه صلى الله عليه وسلم
أخبر به ، وكل شئ قال فيه : وما يدريك ، فإنه لم يخبر به .

ثم ذكر بعض الأمم التى كذبت بها ، وما حاق بها من العذاب فقال :
(كذبت ثمود وعاد بالقارعة) أى كذبت ثمود وعاد بالقيامة التى تفرع الناس
بالفرع والهول ، والسماء بالانفجار ، والأرض والجبال بالنسف ، والنجوم بالطمس
والانكدار .

ثم فصل ما نزل بكل أمة من العذاب فقال :

(١) (فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية) أى فأما ثمود فأهلكهم الله بصيحة جاوزت
الحد فى الشدة كما جاء فى هود « وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ » وهى الصاعقة التى
جاءت فى حم السجدة ، والرجفة والزلزلة التى جاءت فى سورة الأعراف ، فلا تعارض

بين الآيات ، لأن الهلاك في بعضها نسب إلى السبب القريب ، وفي بعضها نسب إلى السبب البعيد .

(٢) (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً) أى وأما عاد فأهلكوا بريح مهلكة عنت عليهم بلاشفقة ولارحمة ، فما قدروا على الخلاص منها بحيلة : من استتار ببناء ، أو لياد بجبل ، أو اختفاء في حفرة ، فقد كانت تنزعهم من مكانهم وتهلكهم ، وقد دامت سبع ليال وثمانية أيام بلا انقطاع ولا فتور .

ثم ذكر نتائجها فقال :

(فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية؟) أى فترى قوم عاد في تلك السبع الليالي والثمانية الأيام المتتابعة صرعى هالكين ، كأنهم أصول نخل متأكلة الأجواف لم يبق منهم ولا من نسلهم أحد ، وجاء في آية أخرى : « فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ » .

(٣) (وجاء فرعون ومن قبله والمؤمنات بالخطاة) أى وجاء فرعون ومن تقدمه من الأمم التي كفرت بآيات الله كقوم نوح وعاد وثمود والقرى التي ائتمنت بأهلها ، وصار عاليها سافلها ، بسبب خطيئتها ومعصيتها .

ثم بين هذه الخطيئة بقوله :

(فصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية) أى فعصى هؤلاء الذين تقدم ذكرهم رسل الله الذين أرسلوا إليهم ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وأذاقهم وبال أمرهم بعقوبة زائدة على عقوبة سائر الكفار ، كما زادت قبائلهم على قبائل غيرهم .

ونحو الآية قوله : « كُلُّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ » .

(إنالما طغى الماء حملناكم في الجارية) أى إنالما ارتفع الماء ، وجاوز الحد ،

وجاء الطوفان حملنا آباءكم من مؤمنى قوم نوح فى السفينة ، لننجيهم من الفرق الذى عم هؤلاء الكافرين جميعا .

والمشهور أن الناس كلهم من سلائل نوح وذريته .

ثم ذكر ما فى هذه النجاة من العبرة فقال :

(لنجعلها لكم تذكرة) أى لنجعل نجاة المؤمنين ، وإغراق الكافرين عظة

وعبرة ، لدلائها على كمال قدرة الصانع وحكمته ، وسعة رحمته .

(وتعيها أذن واعية) أى وتفهمها أذن حافظة سامعة عن الله ، فتنتفع بما سمعت

من كتابه ولا تضيع العمل بما فيه .

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعلى : « إبنى دعوت الله أن يجعلها أذنىك

ياعلى » قال على كرم الله وجهه : فما سمعت شيئا فنسيته ، وما كان لى أن أنسى .

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَمَحَلَّتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ

فَدَكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَأَنْشَقَّتِ

السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ

فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) .

شرح المفردات

نفخة واحدة : هى النفخة الأولى ، حملت الأرض والجبال : أى رفعت من

أما كنها ، فدكتا دكة واحدة : أى ضرب بعضها ببعض حتى اندقت وصارت كثيبا

مهيبا ، الواقعة : النازلة وهى يوم القيامة ، انشقت السماء : أى فتحت أبوابا ، واهية :

أى مسترخية ضعيفة القوة ، من قولهم : وهى السقاء إذا انخرق ، ومن أمثالهم قول الراجز :

خلّ سبيل من وهى سقاؤه . ومن هُرُيقُ بالفلاة ماؤه

أرجائها: أى جوانبها، واحدها رجا، ثمانية : أى ثمانية أشخاص ، خافية : أى سريرة .

المعنى الجملى

بعد أن قص هذه القصص الثلاثة ، ونبّه بها على ثبوت القدرة والحكمة ، وبها ثبت إمكان وقوع يوم القيامة — شرع يذكر تفاصيل أحوال هذا اليوم وما يكون فيه من أهوال .

الإيضاح

(فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة) أى فإذا نفخ إسرافيل النفخة الأولى التى عندها خراب العالم .

(وحملت الأرض والجبال) أى رفعت من أما كنها ، ولا ندرى كيف رفعت فذلك من أنباء الغيب ، فقد يكون ذلك بريح يبلغ من قوة عصفها أن تحملها ، أو أن ملكا يحملها ، أو بقدرة الله من غير سبب ظاهر ، أو بمصادمة بعض الأجرام كذوات الأذناب ، فتتفصل الجبال وترتفع من شدة المصادمة ، وترتفع الأرض من حيرتها .

(فدكتا دكة واحدة) أى فضرب بمضهما ببعض ضربة واحدة حتى تقطعت أوصالهما ، وصارتا كشيئا مهيبا ، وهباء منبثا لا يتميز شيء من أجزائهما عن الآخر . (فيومئذ وقعت الواقعة) أى فحينئذ تقوم القيامة .

(وانشقت السماء فهى يومئذ واهية) أى وتصدعت السماء لأنها يومئذ ضعيفة المنعة كالعن المنفوش ، بعد أن كانت شديدة الأسر عظيمة القوة .

(والملائك على أرجائها) أى والملائكة على جوانب السماء ينظرون إلى أهل

الأرض ، ولا ندرى كيف ذلك ، ولا الحكمة فيه ، فندع تفصيل ذلك ونؤمن به كما جاء فى الكتاب ولا نزيد عليه .

(ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) أى ويحمل عرش ربك حينئذ فوق رؤسهم ثمانية من الملائكة .

(يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) أى فيومئذ تحاسبون وتسالون ، لا يخفى على الله شىء من أموركم ، فإنه تعالى عليم بكل شىء ، لا يعزب عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، كما جاء فى آية أخرى : « لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ » .

وفى هذا تهديد شديد ، وزجر عظيم ، ومبالغة لا تخفى ، وفضيحة للكافرين ، وسرور للمؤمنين بظهور ما كان خفيا عليهم من أعمالهم ، وبذلك يتكامل حبورهم وسرورهم . والتعبير بالعرض تشبيه بعرض السلطان لمسكره ، ليعرف أحوالهم ، وفى هذا العرض إقامة للحجة ، ومبالغة فى إظهار العدل .

أخرج الإمام أحمد وعبد بن حميد والترمذى وابن ماجه وابن مردويه عن أبى موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فجداول ومعاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطاير الصحف فى الأيدي ، فأخذ يمينه وأخذ بشماله » .

فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ يَمِينِهِ فَيَقُولُ : هَؤُلَاءِ اقْرَءُوا كِتَابِيَةَ (١٩)
إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةَ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ
عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ
الْخَالِيَةِ (٢٤)

شرح المفردات

هاؤم : أى خذوا ، ظننت : أى علمت ، ملاقٍ : أى معانٍ ، راضية : أى يرضى بها صاحبها ، عالية : أى مرتفعة المكان ، والقطوف : ما يجتنى من الثمر ، واحدها قطف (بكسر القاف وسكون الطاء) دانية : أى قريبة ، هنيئا : أى بلا تنغيص ولا كدر ، أسلفتم : أى قدمتم ، الخالية : أى الماضية .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنهم يعرضون على الله ولا يخفى عليه شيء من أعمالهم — فصل أحكام هذا العرض ، فأخبر بأن من يؤتى كتابه يمينه يشتد فرحه حتى يقول لكل من لقيه : خذ كتابى واقراه ، لأنه يعلم ما فيه من خير وفضل من الله ، ويقول : إني كنت أعلم أن هذا اليوم آتٍ لأرى فيه ، وإني سأحاسب على ما عمل ، وحينئذ يكون جزاؤه عند ربه جنة عالية ذات ثمار دانية ، ويقال له ولأمثاله : كلوا واشربوا هنيئاً بما قدمتم لأنفسكم فى الدنيا .

الإيضاح

(فأما من أوتى كتابه يمينه فيقول هاؤم اقروا كتابيه) أى فأما من أعطى كتابه يمينه فيقول : تعالوا اقروا كتابى فرحاً به ، لأنه لما أوتيه باليمين علم أنه من الناجحين الفائزين بالنعيم ، فأحب أن يظهره لغيره حتى يفرحوا بما نال . ثم ذكر العلة فى حسن حاله فقال :

(إني ظننت أنى ملاقٍ حسابية) أى إني فرح مسرور ، لأنى علمت أن ربى سبحانه حساباً يسيراً ، وقد حسابنى كذلك ، فأنه عند ظن عبده به .

قال الضحاك : كل ظن في القرآن من المؤمن فهو يقين ، ومن الكافر فهو شك .
وقال مجاهد : ظن الآخرة يقين ، وظن الدنيا شك .

وقال الحسن في الآية : إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل للآخرة ،
وإن الكافر أساء الظن بربه فأساء العمل لها .

ثم بين عاقبة أمره فقال :
(فهو في عيشة راضية) أى فهو يعيش عيشة مرضية بخالية مما يكدر مع دوامها ،
وما فيها من إجلال وتعظيم .
ثم فصل ذلك فقال :

(في جنة عالية قطوفها دانية) أى فهو يعيش في بستان عال رفيع ذى ثمار دانية .
القطوف ، يأخذها المرء كما يريد ، إن أحب أن يأخذها بيده انقادت له ، وهو قائم
وجالس أو مضطجع ، وإن أحب أن تدنو إلى فيه دنت له .

(كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية) أى ويقول لهم ربهم
جل ثناؤه : كلوا يامعشر من رضيت عنه فأدخلته جنتي — من ثمارها وطيب ما فيها
من الأطعمة ، واشربوا من أشربتها ، أكلاً وشرباً هنيئاً لا تتأذون بما تأكلون
وما تشربون جزاء من الله ، وثواباً على ما قدمتم في دنياكم لأخرتكم من
العمل بطاعتي .

وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ (٢٥)
وَلَمْ أَذَرِ مَا حِسَابِيَةَ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي
مَالِيَةَ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ (٢٩) خَذُوهُ فَعَلُوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ
صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ

لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ
لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسِيلِينَ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا
الْخَاطِئُونَ (٣٧) .

شرح المفردات

القاضية : أى القاطعة للحياة فلم أبعث بعدها ، ما أغنى عنى ماله : أى لم يقن
عنى مالى الذى تركته فى الدنيا ، هلك : أى بطل ، والسلطان : الحجة ، غلوه : أى
شدّوه بالأغلال ، والغلّ : القيد الذى يجمع بين اليدين والعنق ، والجحيم : النار
المتأججة المشتعلة ، وصلبته النار وأصلبته : أى أوردته إياها ، ذرعها : أى طولها ،
فأسلكوه : أى فاجعلوه فيها بحيث يكون كأنه السلك : أى الخبل الذى يدخل
فى ثقب الخرزات بعسر اضيق ذلك الثقب ، إما بإحاطتها بعنقه أو بجميع بدنه بأن
تلفّ عليه ، ويقال سلكته الطريق : إذا أدخلته فيه ، حميم : أى قريب مشفق ،
والغسلين : الدم والماء والصديد الذى يسيل من لحوم أهل النار قاله ابن عباس ، وعن
أبى سعيد الخدرى مرفوعاً : «لو أن دلوا من غسلين يهرأق فى الدنيا لأتبن أهل الدنيا»
أخرجه الحاكم وصححه ، والخاطئون : أى الآثمون ؛ يقال خطى الرجل : إذا تعمد
الإثم والخطأ .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سرور السعداء بصحائف أعمالهم ، ثم بين حسن أحوالهم
فى معاشهم ومساكنهم — أردف ذلك بذكر غمّ الأشقياء الكافرين وحزنهم
بوضع الأغلال والقيود فى أعناقهم وأيديهم ، وإعطائهم الغسلين طعاماً ، ثم أعقبه
بذكر سبب هذا ، وهو أنهم كانوا لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحشون على
مساعدة ذوى الحاجة والبائسين .

الإيضاح

(وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتني لم أوت كتابيه) فإنه لما نظر في صحيفة أعماله ، وتذكر قبيح أعماله ، خجل منها وتمنى أن لو كان عذب في النار ولم يخجل هذا الخجل .

وفي هذا إيحاء إلى أن العذاب الروحاني أشدّ ألماً من العذاب الجسماني .
(ولم أدر ما حسابه؟) أي ولم أعلم أيّ شيء حسابي الذي أحاسب به ، إذ كله وبال ونكال .

(ياليتها كانت القاضية) أي ليت الموتة التي متها في الدنيا كانت نهاية الحياة ، لم أبعث بعدها ولم ألق ما أنا فيه من نكال وسوء منقلب .
قال قتادة : تمّ الموت ولم يكن في الدنيا عنده شيء أكره من الموت اه ،
وشر من الموت ما يطيب له الموت ، قال شاعرهم :

وشرّ من الموت الذي إن لقيته . . . تمنيتُ منه الموتَ والموتُ أعظم

(ما أغنى عنى ماليه) أي لم يدفع عنى مالى الذى كنت أملكه فى الدنيا من عذاب الله ولا من بأسه شيئاً .

(هلك عنى سلطانيه) أي ذهب ملكى وتسلطى على الناس ، وبقيت فقيراً ذليلاً ، ومراده التحسّر والندم ، إذ كان ينازع الحقين بسبب الملك والسلطان ، فالآن ذهب ذلك وبقي الوبال .

ثم ذكر سبحانه سوء منقلبه فقال :

(خذوه فقلّوه . ثم الجحيم صلوه) أي فيقال لزبانية جهنم : خذوه فضعوا الغلّ

في عنقه ، ثم أدخلوه في النار الموقدة لقاء كفره بالله واجترأه عظيم الآثام .

(ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه) أي ثم أدخلوه فى سلسلة طولها

سبعون ذراعاً تلفت على جميع جسمه حتى لا يستطيع تحركاً ولا انفلاتاً .

والعرب إذا أرادت الكثرة عبرت بالسبعة والسبعين والسبعائة ، والمقصد إثبات أنها طويلة المدى .

ثم بين سبب استحقاق هذا العذاب فقال :

(إنه كان لا يؤمن بالله العظيم) أى افعلوا ذلك به جزاء له على كفره بالله فى الدنيا وإشراكه به سواء ، وعدم القيام بحق عبادته وأداء فرائضه .

(ولا يحض على طعام المسكين) أى ولا يحث الناس على إطعام أهل المسكنة والحاجة ، فضلا عن بذل المال لهم .

(فليس له اليوم هاهنا حميم) أى فليس له يوم القيامة من ينقذه من عذاب الله تعالى ، لأنه يوم يفر فيه القريب من قريبه ويهرب الحبيب من حبيبه .

وجاء فى آية أخرى : « وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا » وقال : « مَا لَظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ » .

(ولا طعام إلا من غسلين . لا يأكله إلا الخاطئون) أى وليس له طعام إلا ما يسيل من لحوم أهل النار من الدم والصديد الذى لا يأكله إلا من مر على اجتراح السيئات ، ودسّ نفسه وأحاطت به الخطايا .

فَلَا أُقِيمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَدَّكَّرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) .

شرح المفردات

ماتبصرون : هى المشاهدات ، وما لاتبصرون : هى المغيبات .

المعنى الجملى

بعد أن أقام الدليل على إمكان القيامة ، ثم على وقوعها ، ثم ذكر أحوال المؤمنين السعداء ، والكافرين الأشقياء — أردف ذلك بتعظيم القرآن والرسول المنزل عليه هذا القرآن .

قال مقاتل : سبب نزول الآية أن الوليد بن المغيرة قال : إن محمدا ساحر ، وقال أبو جهل : شاعر ، وقال عقبه : كاهن .

الإيضاح

(فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون) أى أقسم بما تشاهدون من الخلقات . وبما غاب عنكم ، قال قتادة : أقسم بالأشياء كلها ما يبصر منها وما لا يبصر ، وقال عطاء : ما تبصرون من آثار القدرة ، وما لا تبصرون من أسرار القدرة .

(إنه لقول رسول كريم) أى إن هذا القرآن كلام الله ووحيه أنزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

(وما هو بقول شاعر) لأن محمدا لا يحسن قول الشعر .

(قليلا ما تؤمنون) أى تؤمنون بذلك القرآن إيمانا قليلا ، والمراد أنهم لا يؤمنون

أصلا ، فالعرب تقول : قلما يأتينا ، يريدون أنه لا يأتينا .

وقد يكون المراد بالقلّة أنهم قد يؤمنون في قلوبهم ثم يرجعون عنه سريعا .

(ولا يقول كاهن قليلا ما تذكرون) أى وليس بقول كاهن كما تزعمون ، لأنه

سبب الشياطين وشمهم ، فلا يمكن أن يكون بإلهامهم ، ولكنكم لما لم تستطيعوا

فهم أسرار نظامه — قلتم : إنه من كلام الكهان .

ثم أكد ما تقدم بقوله :

(تنزيل من رب العالمين) أى بل هو تنزيل من رب العالمين نزل به الروح الأمين على رسوله صلى الله عليه وسلم .

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذَكَّرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢) .

شرح المفردات

التَقَوَّلُ : الافتراء ، وسمى بذلك لأنه قول متكلف ، والأقَاوِيل : الأقوال المقتراة ، واحدها قول على غير قياس ، لأخذنا منه : أى لأمسكناه ، باليمين : أى بيمينه ، والوتين : عرق يخرج من القلب ويتصل بالرأس ، حاجزين : أى مانعين ، حق اليقين : أى عين اليقين .

المعنى الجملى

بعد أن أثبت أن القرآن تنزيل من رب العالمين ، وليس بشعر ولا كهانة — أكد هذا بأن عمدا لا يستطيع أن يفتعله ، إذ لو فعل ذلك لأبطالنا حجته ، وأمتنا دعوته ، أو سلبناه قوة البيان فلا يتكلم بهذا الكذب ، أو قتلناه فلم يستطع نشر الأكاذيب ، وقد جرت سنتنا بأن كل متكلف للقول لا يقبل قوله ، ولا يرضى

السامعون إلى كلامه كما قال : « وَمَا أَنَا مِنَ التَّكَلِّمِينَ » ولا يستطيع أحد بعدئذ أن يدافع عنه .

ثم ذكر أن القرآن عظة لمن يتقى الله ويخشى عتابه ، وإنه حسرة على الكافرين حينما يرون ثواب المؤمنين ، وإنه لحق لاريب فيه .
ثم أمر رسوله بأن يقدس زبه العظيم ويشكره على ما آتاه من النعم ، وعلى ما أوحى به إليه من القرآن العظيم .

الإيضاح

(ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين) أى ولو افترى محمد علينا بعض الأقوال الباطلة ونسبها إلينا لعاجلناه بالعقوبة ، وانتقمنا منه أشد الانتقام .
والأخذ باليمين يكون عند ضرب الرقبة وإزهاق الروح ، وقد جرى ذكر هذا على التمثيل بما يفعله الملوك بمن يتكذب عليهم فإنهم لا يمهلونهم ، بل يضربون رقبتهم على الفور .

(ثم لقطعنا منه الوتين) الوتين : عرق غليظ تصادفه شفرة الفاجر .

قال الشماخ ابن ضرار :

إذا بَلَمَّتَنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي عَرَابَةً فَاشْرَقِي بَدَمِ الْوَتِينِ

والمراد — أنه لو كذب علينا لأزهدنا روحه ، فكان كمن قطع وتينه ، وهذا تصوير للإهلاك بأفطع ما يفعله الملوك بمن يغيظون عليه ، إذ يأخذونه القتال بيمينه ويكفحه بالسيف ويضرب عنقه .

(فما منكم من أحد عنه حاجزين) أى فما أحد منكم يمنعنا عن عقوبته ،
والتنكيل به .

وجمع « حاجزين » باعتبار أحد ، إذ هو فى معنى الجماعة ، ويقع على الواحد والجمع

والمذكور والمؤنث كما جاء في قوله: «لَا تَفْرُقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ» وقوله: «لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ» .

(وإنه لتذكرة للمتقين) أى وإن هذا القرآن لعظة وذكرة لمن يخشى عقاب الله فيطيع أوامره ، وينتهى عما نهى عنه ، وخص (المتقين) بالتذكرة والعظة ، لأنهم هم الذين ينفعون بها .

(وإننا لنعلم أن منكم مكذبين) له بسبب حبكم للعالمية وحسدكم للداعى ، وإننا لنجازيكم على ذلك بما تستحقون إظهارا للعدل .

والتلخيص — إن منكم من اتقى الله فيتذكر بهذا القرآن وينتفع به ، ومنكم من مال إلى الدنيا فكذب به وأعرض عنه .

وفي هذا وعيد شديد لا يخفى .

(وإنه لحسرة على الكافرين) أى وإن هذا القرآن لحسرة عظيمة على الكافرين فى دار الدنيا إذا رأوا دولة المؤمنين ، وفى الآخرة إذا رأوا ثواب المصدقين .

(وإنه لحق اليقين) أى وإنه للحق الذى لا شك فى أنه من عند الله لم يتقوله محمد صلى الله عليه وسلم .

(فسبح باسم ربك العظيم) أى فسبح الله تعالى بذكر اسمه ، تزيها له عن الرضا بالتقول عليه ، وشكرا له على ما أوحى به إليك من هذا القرآن الجليل الشأن .
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم .

ما تضمنته هذه السورة الكريمة

تضمنت هذه السورة ثلاثة مقاصد :

(١) هلاك الأمم المكذبة لرسولها فى الدنيا من أول السورة إلى قوله: «أُذُنٌ وَأَعْيَةٌ»

(٢) عذاب الآخرة جزاء على التكذيب فى الدنيا .

(٣) إثبات أن القرآن العظيم وحى من عند الله وليس بقول شاعر ولا كاهن .

سورة المعارج

هي مكية، وآياتها أربع وأربعون، نزلت بعد الحاقة، وهي كالتممة لها في وصف القيامة وعذاب النار.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢)
 مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرَجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ
 مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ
 بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ
 الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُبْصَرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ
 لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمئِذٍ بِدِينِهِ (١١) وَصَاحِبَتُهُ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ
 الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤) كَلَّا إِنَّهَا
 لَأَنْظَى (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوْمِ (١٦) تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (١٧) وَجَمَعَ
 فَأَوْغَى (١٨).

شرح المفردات

سأل سائل: أي دعا داع، من قولك: دعا بكذا إذا استدعاه وطلبه، كما جاء في قوله: «يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمَنِينَ» ليس له دافع: أي إنه واقع لا محالة، والمعارج: واحدها معرج، وهو المصعد (استنسير) كما قال: «وَمَعَارِجَ عَذَابِهَا يُظْهِرُونَ»

والمراد بها النعم التي تكون درجات متفاوتة ، تصل إلى الخلق على مراتب مختلفة ،
والروح : هو جبريل عليه السلام ، والمهل : دردىء الزيت ، وهو ما يكون في قعر
الإناء منه ، والعمى : الصوف المصبوغ ألوانا ، والحجيم : القريب ، يبصرونهم : أى يبصر
الأعماء الأعمى ويرونهم ، يود : أى يتمنى ، والحجرم : المذنب ، وصاحبته : زوجته ،
وفصيلته : هى عشيرته ، تؤويه : أى تضمه ويأوى إليها ، كلاً : هى كلمة تفيد الزجر
عما يطلب ، نظى : هى النار ، والشوى : واحداً شواة ، وهى جلدة الرأس تنزعها
النار انزعاً فتفرقها ثم تعود إلى ما كانت عليه ، تدعو : أى تجذب وتحضر ، تولى :
أى أعرض عن الطاعة ، جمع فأوعى : أى جمع المال فجعله فى وعاء .

المعنى الجملى

كان أهل مكة يقول بعضهم لبعض : إن محمداً يخوفنا بالعذاب ، فما هذا
العذاب ؟ ولمن هو ؟ وكان النضر بن الحرث ومن لَفَّ لَفَّهُ يقولون إنكاراً واستهزاء :
« اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ
أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » فترت هذه الآيات :

الإيضاح

(سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع) أى طلب طالب عذاباً
واقعاً لاحتماله ، سواء طلب أم لم يطلب ، لأنه نازل بالكافرين فى الآخرة لا يدفعه
عنهم أحد ، فلماذا هم يطلبونه استهزاء ؟

(من الله ذى المعارج) أى ليس لذلك العذاب الصادر من الله دافع من جهته
إذا جاء وقته ، فإذا اقتضت الحكمة وقوعه امتنع ألا يفعله ، وهو ذو النعم التي تصل
إلى الناس على مراتب مختلفة ، ودرجات متفاوتة .

والخلاصة — إن العذاب الذى طلبه السائلون واستبطئوه واقع لاحتماله ، وهو سبحانه لم يفعل ذلك إلا للحكمة ، وهى وضعهم فى الدرجات التى هم أهل لها بحسب استعدادهم ، وما دستوا به أنفسهم من سيء الأعمال والخطايا التى أحاطت بهم من كل صوب .

وقد نظم سبحانه العوالم فجعل منها مصاعد ، ومنها دركات ، فليكن هؤلاء فى الدرجات ، وليكن المؤمنون والملائكة فى الدرجات طبقا عن طبق على نظم ثابتة اقتضتها الحكمة والمصلحة .

ثم بين مقدار ارتفاع تلك الدرجات فقال :

(تخرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) أى تصعد فى تلك المعارج الملائكة وجبريل عليه السلام إلى مواضع لو أراد واحد من أهل الدنيا أن يصعد إليها لبق فى ذلك الصعود خمسين ألف سنة ، لكنهم يصعدون إليها فى الزمن القليل ، وليس المراد من ذكر الخمسين تحديد العدد ، بل المقصد أن مقام القدس الإلهى بعيد المدى عن مقام العباد ، فهم فى المادة مغموسون ، وهناك عوالم أطف وأطف ، درجات بعضها فوق بعض ، وكل عالم أطف مما قبله ، وكلما لطف العالم العلوى كان أشد قوة وهكذا : « وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى » .

(فاصبر صبيرا جميلا) أى إذا سألوا استمجال العذاب على سبيل الاستمراء والتكذيب بالوحى ، وكان هذا يورث ضجرك أيها الرسول — فاصبر صبيرا جميلا بلا جزع ولا شكوى ، لأنه أمر محقق ، وكل آت قريب .

ثم بين أن هذا اليوم آتٍ لا شك فيه فقال :

(إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا) أى إنهم يرون هذا اليوم الذى مقداره خمسون ألف سنة — بعيدا غير ممكن ، ونحن نراه قريبا هيئنا غير بعيد علينا ولا متعذر . ثم ذكر وقت حدوثه فقال :

(يوم تكون السماء كالمهل) أى إن العذاب واقع بالكافرين يوم تكون السماء

كأنها عكر الزيت ، والمراد أنها تكون واهية ضعيفة غير متماسكة .

(وتكون الجبال كالهن) أى وتكون الجبال هشة غير متلاحمة كأنها الصوف المنفوش إذا طيرته الريح ، روى عن الحسن : أنها تسير مع الرياح ثم تنهد ، ثم تصير كالهن ، ثم تنهد فتصير هباء منثورا .

(ولا يسأل حميم حميا) أى ولا يسأل قريب مشفق قريبا عن حاله ، ولا يكلمه لأبتلاء كل منهما بما يشغله كما جاء فى قوله : « وَإِنْ تَدَعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِذْعِهَا لَا يَعْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ » وقوله : « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ »

(يبصرونهم) من قولك بصرت بالشيء إذا أوضحته له حتى يبصره ، أى يتعارفون ثم يفرون بعضهم من بعض بعد ذلك .

ثم أُرشد إلى هول ذلك اليوم فقال :

(يودّ المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه . وصاحبه وأخيه . وفصيلته التي تؤويه . ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه) أى يتمنى الكافر لو يفتدى أعز الناس إليه فدية ، لينجيه من ذلك العذاب ، فيؤد لو كان أبناؤه أو زوجته أو أخوه أو عشيرته التي تضمه إليها ، أو أهل الأرض جميعا فداء له ليخلص من ذلك العذاب .
والخلاصة — يتمنى الكافر لو كان هؤلاء جميعا فى قبضة يده لبيد لهم فدية عن نفسه ، ثم ينجيه ذلك — هيات .

(كلا) أى لا يقبل منه فداء ولو جاء بأهل الأرض ، أو بأعز ما يحده من مال ولو بملء الأرض ذهباً ، أو بولده الذى كان حشاشة كبده فى الدنيا ، أو بزوجه وعشيرته .

(إنها لظى . نزاعة للشوى . تدعو من أدبر وتولى . وجمع فأوعى) أى إنها النار الشديدة الحرارة التي تنزع جلدة الرأس وتفرقها ، ثم تعود إلى ما كانت عليه وأنشدوا قول الأعشى :

قالت قتيبة ماله قد جلت شديداً شوائمه

وهذه النار تجذب إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها ، وقدّر أنهم في الدنيا يعملون عملها ، من بين أهل المحشر ، فذوّبوا أنفسهم إذ كذبوا بقلوبهم ، وتركوا العمل بجوارحهم ، وجمعوا المال بفضه على بعض وكنزوه ولم يؤدوا حق الله فيه ، وتشاغلوا به عن فرائضه من أوامرو ونواهٍ .

إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَأْمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرَمِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِقُرُوبِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنْ أَبْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ (٣٥)

شرح المفردات

الهلوع: سرعة الحزن عند مسّ المكروه، وسرعة المنع عند مسّ الخير، من قولهم: ناقة هلوع: إذا كانت سريعة السير. وسأل محمد بن طاهر ثعلبا عن الهلوع فقال: قد فسره الله، ولا يكون تفسير أبين من تفسيره سبحانه - يعني قوله: «إِذَا مَسَّهُ» الآية. والجزع: حزن يعرّف الإنسان عما هو بصدده ويقطعه عنه،

والخير : المال والغنى ، حق معلوم : أى نصيب معين يوجبونه على أنفسهم تقرباً إلى الله وإشفاقاً على المحتاجين ، المحزوم : الفقير الذى لا يسأل الناس فيظن أنه غنى ، يصدقون بيوم الدين : أى يصدقون به تصديقاً يكون له الأثر في نفوسهم ، فيسخرونها ويسخرون أموالهم في طاعة الله ومنفعة الناس ، مشفقون : أى خائفون ، حافظون : أى كاثفون لها عن الحرام ، راعون : أى لا يتخلون بشيء من حقوقها :

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه هو ذو المعارج والدرجات العالية ، والنعم الوفيرة التى يسبقها على عباده الأخيار - أردف هذا بذكر المؤهلات التى توصل إلى تلك المراتب وتبعد عن ظلمة المآذ التى تدخل النفوس فى النار الموقدة التى تنزع الشوى ، وبين أنها عشر خصال تفكّه من السلاسل التى تقيده بها غرائزه التى فطر عليها ، وعاداته التى ألقها وركن إليها ، وهى ترجع إلى شيئين : الحرص ، والجزع . وهذه الخصال هى :

- (١) الصلاة .
- (٢) المداومة عليها فى أوقاتها المعلومة .
- (٣) إقامتها على الوجه الأكل بحضور القلب ، والخشوع للرب ، ومراعاة سننها وآدابها .
- (٤) التصديق بيوم الجزاء بظهور أثر ذلك فى نفسه اعتقاداً وعملاً .
- (٥) إعطاء صدقات من أموالهم للفقراء والمحرومين .
- (٦) مراعاة العهود والمواثيق .
- (٧) أداء الأمانات إلى أهلها .
- (٨) حفظ فروجهم عن الحرام .
- (٩) أداء الشهادة على وجهها .
- (١٠) الخوف من عذاب الله .

الإيضاح

(إن الإنسان خلق هلوعاً . إذا مسه الشر جزوعاً . وإذا مسه الخير منوعاً)
 أى إن الإنسان جبل على الهلع ، فهو قليل الصبر ، شديد الحرص ، فإذا افتقر
 أو مرض أخذ في الشكاة والجزع ، وإذا صار غنياً أو سلباً معافى منع معروفه وشح
 بماله ، وما ذلك إلا لاشتغاله بأحواله الجسمانية العاجلة ، وقد كان من الواجب عليه
 أن يكون مشغولاً بأحوال الآخرة ، فإذا مرض أو افتقر رضى بما قسم له ، علماً بأن
 الله يفعل ما يشاء ، ويحكم بما يريد ، وإذا وجد المال والصحة صرفهما في طلب
 السعادة الأخروية ، وقد استثنى من هذه الحال من اتصفوا بالصفات الآتية :

(١) (إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون) أى إن الإنسان بطبعه
 متصف بصفات الذم ، خليق بالملق إلا من عصمهم الله ووقفهم ، فهداهم إلى الخير
 ويسر لهم أسبابه ، وهم المصلون الذين يحافظون على الصلوات في أوقاتها ، لا يشغلهم
 عنها شيء من الشواغل .

وفي هذا إيماء إلى فضيلة المداومة على العبادة ، أخرج بن حبان عن أبي سلمة
 قال : حدثتني عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خذوا من العمل
 ما تطيقون ، فإن الله لا يمل حتى تملوا » ، قالت فكان أحب الأعمال إلى رسول الله
 صلى الله عليه وسلم ما داوم عليه وإن قل ، وكان إذا صلى صلاة داوم عليها ، وقرأ
 أبو سلمة : الذين هم على صلاتهم دائمون .

(٢) (والذين في أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم) أى والذين في أموالهم
 نصيب معين لذوى الحاجات والبائسين . تقرباً إلى الله وإشفاقاً على خلقه ، سواء
 سألوا واستجدوا ، أو لم يسألوا تمغفا منهم .

والمراد بهذا الحق المعلوم : ما يوظفه الرجل على نفسه ، فيؤديه كل جمعة أو كل
 شهر أو كلما جدت حاجة تدعو إلى بذل المال ، كإغاثة فرد أو إغاثة أمة طراً عليها

ما يستدعى البذل لمصلحة هامة لها ، كالدفاع عن عدو أو دفع مجاعة أو ضرورة ملحة مفاجئة .

(٣) (والذين يصدقون بيوم الدين) أى والذين يوقنون بالمعاد والحساب، فيعملون عمل من يرجو الثواب ويخاف العقاب ؛ وتظهر آثار ذلك فى أفعالهم وأقوالهم ومعتقداتهم ، فينبئون إلى الله ويخبتون إليه .

(٤) (والذين هم من عذاب ربهم مشفقون) أى والذين هم خائفون وحولون من تركهم للواجبات ، وإقدامهم على المحظورات ، ومن يدم به الخوف والإشفاق فيما كلف به يكن حذراً من التقصير ، حرصاً على القيام بما كلف به من علم وعمل .

ونحو الآية قوله : « وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ » وقوله : « الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ » .
ثم ذكر الداعى لهم إلى هذا الخوف فقال :

(إن عذاب ربهم غير مأمون) أى لا ينبغي لأحد أن يأمن عذاب الله وإن بالغ فى الطاعة ، ومن ثم أثر عن السلف الصالح أنهم كانوا كثيرى الخوف والوجل . كما يشعر بذلك قول بعضهم : ليت أمى لم تلدى . وقول آخر : ليتنى شجرة تُعَصَّد ، إلى أشباه ذلك مما يعبر عن شديد الوجل والحشية .

(٥) (والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأُولئك هم العادون) راجع تفسير هذا بتوسع فى سورة المؤمنين

(٦) (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) أى إذا أؤتمنوا لم يخونوا، وإذا عاهدوا لم يندروا .

(٧) (والذين هم بشهادتهم قائمون) أى والذين يقومون بأداء الشهادة عند

الحكام ، ولا يكتمونها ولا يغيرونها ، والشهادة من جملة الأمانات ، وخصها بالذكر اعظم شأنها ، إذ بها تحيا الحقوق ، وبتركها تموت .

(٨) (والذين هم على صلاتهم يحافظون) أى والذين يحافظون على صلاتهم ، ويراعون شرائطها ، ويكملون فرائضها ؛ فيجتهدون قبل الدخول فيها في تفرغ القلب من الوسوس والالتفات إلى ماسوى الله ، مع حضور القلب حين القراءة ، وفهم مايتلى فيها من آى الذكر الحكيم .

ثم وعد هؤلاء بحسن المآل فقال :

(أولئك فى جنات مكرمون) أى هؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال فى بساتين يكرمون فيها بأنواع اللذات والمسرات ، وإلى ذلك أشار الحديث « فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

فَمَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ
عَزِينَ (٣٧) أَيَّطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّا
إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا
لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرْنَهُمْ
يُحْضِرُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ
مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَهُمْ إِلَىٰ نُصْبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ
تُرْهَهُمْ ذِلَّةً ذَلِكِ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤)

شرح المفردات

قَبْلَكَ : أى فى الجهة التى تليك ، مهطعين : أى مسرعين نحوك ، مادى أعناقهم إليك ، مقبلين بأبصارهم عليك ، ليظفروا بما يحملونه هزوا ، وأنشدوا :
 بركة أهلها ولقد أراهم إليه مهطعين إلى السماع
 عزيز : أى فرقا شتى حلقًا حلقًا ، قال عبيد بن الأبرص .
 فجاءوا يهزّعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا
 واحدم عزة ، وأصلها عزوة ، لأن كل فرقة تعزى وتنسب إلى غير من تعزى إليه الأخرى ، بمسوقين : أى بمغلوبين ، والأجداث : القبور ، واحدها جدّث ، والسراع : واحدم سريع ، والنصب (بضمّتين) كل شىء منصوب كالعلم والراية وكذا ما ينصب لعبادة ، وهو المراد هنا ، ويوفضون : أى يسرعون ، خاشمة أبصارهم : أى ذليلة ، ترهقهم : أى تغشاهم .

المعنى الجملى

بعد أن وعد المؤمنين بجنات النعيم مع الكرامة والإجلال — أردف ذلك بذكر أحوال الكافرين مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأبان لهم خطأهم فيما يرجون من جنات النعيم على ما هم عليه من كفر وجحود ، ثم توعدهم بالهلاك ، وإن استطع أحد دفعه عنهم ، ثم أمر رسوله أن يدعهم وشأنهم حتى يوم البعث ، يوم يخرجون من قبورهم مسرعين كأنهم ذاهبون إلى معبوداتهم الباطلة من الأصنام والأوثان ، (وقد كان من دأبهم أن يسرعوا حين الذهاب إليها) وهم فى هذا اليوم تكون أبصارهم ذليلة ، وترهق وجوههم قفرة ، لما تحقّقوا من عذاب لا منجاة لهم منه ، وقد أوعدوه فى الدنيا فكذبوا به .

روى : أنه عليه السلام كان يصلى عند الكعبة ويقرأ القرآن ، وكان المشركون يجتمعون حوله حلقاً حلقاً وفرقاً فرقاً يستمعون ويستهنئون ويقولون : إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلن قبلمهم ، فنزلت هذه الآيات .

الإيضاح

(فما للذين كفروا قَبِلَكَ مطعنين . عن اليمين وعن الشمال عزين) أى فما بالهم يسرعون إليك ، ويجلسون حوالبك ، عن يمينك وعن شمالك ، جماعات متفرقة ، نافرين منك ، لا يلتفتون إلى ماتلقية عليهم من رحمة الله وهدية ، ونصحه وإرشاده ، وما فيه سعادتهم فى معاشهم ومعادهم .

ونحو الآية قوله : « فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ؟ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ » .

أخرج مسلم وغيره عن جابر قال : دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد ونحن حلق متفرقون ، فقال : « ماى أراكم عزين ، ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ؟ قالوا : وكيف تصف الملائكة عند ربها ؟ قال : يتون الصفوف الاول ويتراصون فى الصف » وقد كانت عادتهم فى الجاهلية أن يجلسوا حلقاً مجتمعين . قال شاعرهم :

ترانا عنده واللبل داج على أبوابه حلقاً عزيناً

ثم أناسهم من نيلهم للسعادة التى يفوز بها من يستمعون القول فيتبعون أحسنه فقال :

(أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم ؟ كلا) أى أيطمع هؤلاء وهم نافرون من الرسول صلى الله عليه وسلم ، معرضون عن سماع الحق - أن يدخلوا جنى كما يدخلها المؤمنون المحبتون الذين يدعون ربهم خوفاً وطمئناً ؟ كلا لا مطمع لهم فى ذلك مع ما هم عليه .

ثم ذكر السبب في تبيسهم منها فقال :

(إنا خلقناهم مما يعلمون) أى إنا خلقناهم من أجل ما يعلمون ، وهو تكميل النفس بالإيمان والطاعة ؛ فمن لم يكملها بذلك فهو بمعزلٍ عن أن يتبوأ متبوأ الذين أخلصوا الله وحده ، وبعدت نفوسهم عن دنس الشرك والمعاصي .

ثم توعدهم بأنهم إن لم يتوبوا إلى رشدكم أهلكتهم واستبدل بهم قوما غيرهم خيرا منهم فقال :

(فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون . على أن نبذل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين) أى أقسم برب الكواكب ومشارقها ومغاربها ، إنا لقادرون على أن نخلق أمثلا منهم يستمعون دعوة الداعى ونصح الناصح ، ونهلك هؤلاء ، وإن يعجزنا ذلك ، لكن مشيئتنا اقتضت تأخير عقوبتهم .

والخلاصة — إن هؤلاء المشركين فى تفاقض واضطراب فى الرأى ، فكيف ينكرون البعث ثم يطمعون فى دخول الجنة ، وكيف ينكرون الخالق وقد خلقهم أولا مما يعلمون ، وهو قادر على خلق مثلهم ثانيا .

وفى هذا تهكم بهم وتنبية إلى تفاقضهم فى كلامهم ، فإن الاستهزاء بالساعة ودخول الجنة مما لا يقبله إلا من عنده دخل فى العقل ، ومجانفة لصواب الرأى .

ثم سئل رسوله عما يقولون ويفعلون فقال :

(فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون) أى دعهم فى تكذيبهم وعنادهم إلى يوم البعث ، وحينئذ يعلمون عاقبة وبالهم ، ويذوقون شديد نكالهم ، حين يُعرضون للحساب والجزاء ، يوم تجزى كل نفس بما عملت ، لا شفيع ولا نصير ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ثم فصل أحوالهم فى هذا اليوم فقال :

(يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة) أى يوم يخرجون من قبورهم إذا دعاهم الداعى لموقف الحساب — سراعا

يسابق بعضهم بعضا ، كما كانوا في الدنيا يهرولون إلى النَّصْبِ إذا عابوه يبتدرون
أبيهم يستلمه قبل - مع خشوع الأبصار وذلتها ل هول ما تحققوا من العذاب ، تملو وجوههم
القترة ، لما أصابهم من السكابة والحزن .

ثم ذكر أن ذلك العذاب الذى وقعوا فيه ، كانوا قد أنذروا به ،
ولم يأتهم بغتة فقال :

(ذلك اليوم الذى كانوا يعدون) أى ذلك اليوم وما فيه من أهوال عظام
كانوا قد أنذروا فى الدنيا أنهم ملاقوه وكانوا به يكذبون ، فلا عذر لهم فيما سيموا
به من سوء العذاب .

خلاصة ما حوته السورة الكريمة من أغراض ومقاصد :

- (١) وصف يوم القيامة وأهواله .
- (٢) وصف النار وعذابها .
- (٣) صفات الإنسان التى أوجبت له الجحيم ، وكيف يجتهد لإزالة مابه من
النقص حتى يرتقى إلى المعارج ، ويخرج من عالم المادة .
- (٤) وعيد الكافرين على ما يلاقونه فى ذلك اليوم .

سورة نوح

هي مكية ، وعدد آياتها ثمان وعشرون ، نزلت بعد سورة النحل .
 ووجه اتصالها بما قبلها :

(١) أنه قال في السورة السابقة : « إِنَّا لَقَادِرُونَ . عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ »

وذكر هنا قصة قوم نوح المشتملة على إغراقهم إلا من قد آمن ، وإبدالهم بمن هم خير منهم ، فكأنها وقعت موقع الاستدلال على تلك الدعوى .

(٢) تواخى مطلع السورتين في ذكر العذاب الموعود به الكفار .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ
 عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ
 وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرًا (٣) يَنْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ
 مُّسَمًّى ، إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) .

المعنى الجملى

أخبر سبحانه أنه أرسل نوحا إلى قومه وأمره أن ينذرهم بأسه قبل حلوله بهم ،
 فقال نوح : يا قوم إنى نذير لكم ، فليكن أن تعبدوا الله وحده وتطيعوه ، فإن فعلتم
 ذلك غفر لكم ذنوبكم ومد في أعماركم ، ودرأ عنكم العذاب ، وأمر الله إذا جاء
 لا يرد ولا يدفع ، فهو العظيم الذى قهر كل شيء ، العزيز الذى دانت لعزته جميع
 الخلق .

الإيضاح

(إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم) .
 أى إنا أرسلنا نوحا رسولا إلى قومه وقلنا له : أنذرهم بأس الله وعذابه ، قبل أن
 يغرقهم الطوفان .

ثم أخبر بأنه لما أمره بذلك امتثل الأمر .

(قال يا قوم إني لكم نذير مبين) أى قال نوح لقومه : إني أنذركم عذاب الله
 فاحذروا أن ينزل بكم على كفركم به .

ثم فصل ما أنذرهم به ، فذكر ثلاثة أشياء :

(١) (أن اعبدوا الله) أى أمركم بمباداة الله وحده ، والأمر بذلك يتناول جميع
 الواجبات والمنهوبات من أفعال القلوب وأفعال الجوارح .
 (٢) (واتقوه) أى وأمركم بتقواه وخوف عذابه ، بأن تتركوا محارمه ،
 وتحتنبوا ما أمته .

(٣) (وأطيعون) أى واتبوا إلى ما أمركم به واقبلوا نصيحتي لكم .

ولما كلفهم بهذه الثلاثة الأشياء وعدم عليها بشيئين :

(١) (يغفر لكم من ذنوبكم) أى إذا فعلتم ما أمركم به ، وصدقتم ما أرسلت
 به إليكم — غفر لكم ذنوبكم وساحمكم فيما فرط منكم من الزلات .

وفي هذا وعد لهم بإزالة مضار الآخرة عنهم ، وأمنهم من مخاوفها .

(٢) (ويؤخركم إلى أجل مسمى) أى ويمد في أعماركم إلى الأمد الأقصى
 الذى قدره الله إذا آمنوا وأطاعوا وراء ما قدره لهم ، على تقدير بقائهم على
 الكفر والمعصيان .

واستدل العلماء بهذه الآية على أن الطاعة والبر وصلة الرحم يزداد بها في العمر .

حقيقة كما جاء في الحديث : « صلة الرحم تزيد في العمر » ؛ ولا ريب أن التقوى والطاعة تؤثر هذا الأثر ، إذ طهارة الأرواح ، ونقاء الأشباح تطيل العمر ، فيها يحفظ الأيمن ، وتكتسب الفضائل ، وتجلب المنافع المادية .

والخلاصة — إن الأجل أعلان على ما قاله الزمخشري ؛ وعبارته : فقد قضى الله مثلاً أن قوم نوح إن آمنوا عرهم ألف سنة ، وإن بقوا على كفرهم أهلهم على رأس تسعمائة سنة ؛ ف قيل لهم آمنوا : يؤخركم إلى أجل مسمى ، أى إلى وقت سماه الله وضره أمداً تفنون إليه ، وهو الوقت الأطول ، وهو تمام الألف اه .

ثم أخبر أنه إذا انقضى ذلك الأجل الأطول فلا بد من الموت فقال :

(إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون) أى إن أجل الله الذى كتبه على خلقه فى أم الكتاب إذا جاء لا يؤخر عن ميقاته لو كنتم من أهل العلم ، لكنكم لستم من أهله ، ولذا لم تسارعوا إلى العمل بما أمركم به .

وفى قوله لو كنتم تعلمون : زجر لهم عن حب الدنيا والتمالك عليها ، والإعراض عن أوامر الدين ونواهيه ، وكأنهم قد بلغ بهم الأمر إلى أنهم شاكون فى الموت .

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرَوْا وَاسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) بِمَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤)

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠).

شرح المفردات

ليلا ونهارا : أى دائما ، جعلوا أصابعهم فى آذانهم : أى سدوا مسامعهم ، استعشوا ثيابهم : أى تغطوا بها لئلا يرونى كراهة النظر إلى ، السماء : أى المطر كما جاء فى قوله :

إذا نزل السماء بأرض قوم فحلوها حينما نزل السماء

مدرارا : أى متتابعا ، جنات : أى بساتين ، ترجون : أى تخافون ، وقارا : أى عظمة وإجلالا ، أطوارا : واحدها طور وهو الحال والهَيْئَة ، فطورا نطفة ، وطورا علقة ، وطورا عظاما ، ثم تكسى العظام لحما ، ثم تنشأ خلقا آخر ، طباقا : أى بعضها فوق بعض ، بساطا : أى منبسطة تتقلبون فيها ، فجاجا : أى واسعة ، واحدها فجاج ، وهو الطريق الواسع قاله الفراء وغيره .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن نوحا أمر أن ينذر قومه قبل أن يحل بهم بأس ربهم ، وعظيم بطشه ، وأنه لى نداءه ، فأندرهم وأمرهم بتقواه وطاعته ، لينفرد ذنوبهم ، ويمد في أعمارهم — أردف ذلك بمناجاته لربه وشكواه إليه ، أنه أندرهم بما أمره به ، فعصوه وردوا عليه ما أتاهم به من عنده ، ولم يزدحم دعاؤه إلا إداراً عنه ، وهر بآمنه ، وأنه كان يدعوم تارة جهرة ، وتارة سرا ، وأمرهم أن يطلبوا من ربهم

مغفرة ذنوبهم ، ليرسل المطر عليهم ، و يمدهم بالأموال والبنين ، و يجعل لهم الجنات والأنهار ، ثم نبههم إلى عظمته تعالى ، و ووسع قدرته ، و لفت أنظارهم إلى خلقه تعالى لهم أطواراً ، و خلقه للسموات طباقاً ، و جعل القمر فيهن نورا ، و جعل الشمس سراجاً ، و جعل الأرض كالبساط يتنقلون فيها من وادٍ إلى وادٍ ، و من قطر إلى قطر .

الإيضاح

(قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدحم دعائي إلا فراراً) أي قال رب إني أنذرت قومي ولم أترك دعاءهم في ليل ولا نهار امتثالاً للأمر ، و كلما دعوتهم ليقربوا من الحق فرّوا منه ، و جادوا عنه .

ثم أخبر عن أحوال أخرى لهم تدل على الفظاظة و جفاء الطبع فقال :

(و إني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً) أي و إني كلما دعوتهم إلى الإقرار بوجدانيتك ، والعمل لطاعتك ، و البراءة من عبادة كل ماسواك ، لتغفر لهم ذنوبهم — سدّوا مسامعهم حتى لا يسموا دعائي ، و نغطوا بثيابهم كراهة النظر إليّ ، و أكبوا على الكفر والمعاصي ، و تماظموا عن الإذعان للحق ، و يقبل مادعوتهم إليه من النصيح .

ثم بين أنه ماترك وسيلة في الدعوة إلا فعلها فقال :

(ثم إني دعوتهم جهاراً . ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً) أي ثم إني كنت أسرّ لهم بالدعوة تارة ، و أجهر لهم بها تارة أخرى ، و طوراً كنت أجمع بين الإعلان والإسرار .

و الخلاصة — إنه عليه الصلاة والسلام لم يترك سبيلاً للدعوة إلا فعلها ، فاستعمل طرقاً ثلاثة :

(١) بدأهم بالمناجحة في السر ، فاملوه بما ذكر في الآية من سدّ الآذان

والاستنشاء بالثياب ، والإصرار على الكفر ، والاستعظام عن سماع الدعوة .

(٢) جاهرهم بالدعوة ، وأعلنهم على وجه ظاهر لا خفاء فيه .

(٣) جمع بين الإعلان والإصرار .

ثم بين ما كان يقول لهم فقال :

(فقلت استغفروا ربكم) أى فقلت لهم : سلوا ربكم غفران ذنوبكم ، وتوبوا

إليه من كفركم وعبادة ماسواه من الآلهة ، ووحده وأخلصوا له العبادة .

(إنه كان غفارا) لذنوب من أناب إليه وتاب منها ، متى صدقت العزيمة ،

وخلصت النية ، وصحت التوبة ، فضلا منه وجودا ، وإن كانت كزبد البحر .

ولما كان الإنسان مجبولا على محبة الخيرات العاجلة كما قال : « وَأُخْرَى

تُحِبُّونَهَا نَصَرْنَا مِنَ اللَّهِ وَفَتَحَ قَرِيبٌ » لاجرم أعلمهم أن إيمانهم بالله يجمع لهم إلى

الحظ الأوفر فى الآخرة ، الخصب والغنى وكثرة الأولاد فى الدنيا ، ومن ثم وعدهم

بخمسة أشياء :

(١) (يرسل السماء عليكم مدرارا) أى يرسل المطر عليكم متتابعا ، فتزرعون

ما تحبون ، ويكثر الخصب والغلات النافعة لكم فى معاشكم ، من حبوب وثمار ،

وتحدث لكم طمأنينة وأمن وراحة لتوافر ما تشتهون ، مما هو سبب السعادة والهدى .

(٢) (ويعدكم بأموال) أى ويكثر لكم الأموال والخيرات على سائر ضرورياتها

واختلاف ألوانها .

(٣) (وبنين) أى ويكثر لكم الأولاد ؛ فقد ثبت لدى علماء الاجتماع أن

النسل لا يكثر فى أمة إلا إذا استتب فيها الأمن ، وارتفع منها الظلم ، وساد العدل

بين الأفراد ، وتوافرت لهم وسائل الرزق .

وأصدق شاهد على هذا الأمة المصرية ، فقد كانت فى عصر المماليك فى القرن

السابع عشر الميلادى ، أيام الظلم والعسف والجبروت ، فى فقر وضنك ، وسلب

ونهب ، فتدهور عدد سكانها حتى بلغ الثلاثة ملايين .

ولما اعتلى عرش مصر « محمد علي » رأس الأسرة المالكة في مصر في أوائل القرن الثامن عشر ، وساس البلاد بحكمته ، وسعى جهد طاقته في تنظيم مرافقها من زراعة وصناعة ومعارف وعلوم ، تسكاثر النسل وما زال يزيد ، ونهج أبناؤه وحفدته نهجه حتى بلغ عدده في عصرنا الحاضر نحو عشرين مليونا .

(٤) (ويجعل لكم جنات) أي ويوجد لكم بساتين عامرة تأخذون من ثمارها ما به تنتفعون ، ولن يطمع الناس في الفاكهة إلا إذا وجدت لديهم الأقوات ، وكثرت الغلات .

(٥) (ويجعل لكم أنهارا) جارية بها يكثُر الخصب والزرع بمختلف ألوانه وأشكاله .

لا جرم أن الأمة الكثيرة البساتين والمزارع ، يعمها الرياء ، وتسعد في حياتها الدنيوية .

وعن الحسن أن رجلا شكأ إليه الجذب فقال له : استغفر الله ، وشكأ إليه آخر الفقر وقلة النسل فقال له : استغفر الله ، وشكأ إليه ثالث جفاف بساتينه . فقال له : استغفر الله ، فقال له بعض القوم : أتاك رجال يشكون إليك أنواعا من الحاجة ، فأمرتهم كلهم بالاستغفار ، فقال : ما قلت من نفسي شيئا ، إنما اعتبرت قول الله عز وجل حكاية عن نبيه نوح عليه الصلاة والسلام أنه قال لقومه : « اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ » الآية . وبعد أن أدبهم الأدب الخلقى بطلبه منهم تهذيب نفوسهم واتباعهم مكارم الأخلاق ، شرع يؤدبهم الأدب العلمي بدراسة علم التشريح ، وعلم النفس ، ودراسة أحوال العوالم العلوية والسفلية فقال :

(مالكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا) أي مالكم لا تحافون عظمة الله وقد خلقكم على أطوار مختلفة ، فسكنتم نطفة في الأرحام ، ثم علقه ، ثم مضغه ، ثم عظاما ، ثم كسا عظامكم لحما ، ثم أنشأكم خلقا آخر ، فتمبارك الله أحسن الخالقين .

وقد ذكرت هذه الأطوار في سور كثيرة كسورة آل عمران وسورة المؤمنين وغيرها .

وبعد أن ذكر النظر في الأنفس أتبعه بالنظر في العالم العلوى والسفلى فقال :

(ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجاً) أى ألم تروا كيف خلق السموات متطابقة بعضها فوق بعض ، وجعل للقمر بروجاً ومنازل وفارت نوره ، فجعله يزداد حيناً حتى يتناهى ، ثم يبتدىء ينقص حتى يستسر ليدل ذلك على مضيّ الشهور والأعوام ، وجعل الشمس كالسراج يزيل ظلمة الليل .

ونحو الآية قوله : « هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ، يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » .

(والله أنبتكم من الأرض نباتاً) أى والله أنبت أباكم آدم من الأرض كما قال : « إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ » .

وقد يكون المعنى — إنه أنبت كل البشر من الأرض ، لأنه خلقهم من النطف وهى متوالدة من الأغذية المتوالدة من النبات المتوالدة من الأرض .

وجعلهم نباتاً لأنهم ينمون كما ينمو النبات ويلدون ويموتون ، وأيديهم وأرجلهم كأفروع النبات : وعروقهم المتشعبة فى الجسم والتي يجرى فيها الدم وينتشر فى الأطراف ، تشبه ما فى الشجر ، وأجوانهم مختلفة كأحوال النبات ، فمنه الحلوى والمرّ والطيب والخبيث ، واستعدادهم مختلف كاستعداد النبات ، فلكل امرئ خاصة كما لكل نوع من النبات خاصة .

(ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً) أى ثم يعيدكم فى الأرض كما كنتم تراباً ، ويخرجكم منها متى شاء أحياء كما كنتم بشرّاً .

ثم أخذ يعدد النعم التي أعدها للإنسان في الأرض ، وذكر أن الأرض مهيأة مسخرة لأمره كتسخير البساط للرجل يتقلب عليه كما يشاء ، ويظهر مواهبه لاستخراج ما في بطنها من المعادن المختلفة ، وخيراتها المنوعة فقال :

(والله جعل لكم الأرض بساطاً) أى والله بسط لكم الأرض ومهدّها ، وثبتّها بالجبال الراسيات .

ثم بين حكمة هذا فقال :

(لتسلكوا منها سبيلاً فحاجاً) أى لتستقروا عليها ، وتسلكوا فيها ، أين شئتم من نواحيها وأرجائها وأقطارها المختلفة .

وقصارى ما سلف — إن نوحاً عليه السلام أمر قومه بالنظر في علوم الأنفس والآفاق من معدن ونبات وحيوان وإنسان وسما وأرض وشمس وأقمار .

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَأَتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَنْزِلُنَّ إِلَهُتَكُمْ وَلَا تَنْزِلُنَّ وِدَا وَلَا سَوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤) .

شرح المفردات

الخشار : الخسران ، كبارا : أى كبيراً عظيماً ، لانذرن : أى لاتتركن ، وِدًا وسواع ويغوث ويعوق ونسر : أسماء أصنام كانوا يعبدونها :

المعنى الجملى

أخبر عن نوح أنه أعلم ربه وهو العليم الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة أنه مع ما استعمله من الوسائل والأساليب المختلفة المشتملة على الترغيب طوراً والترهيب طوراً

آخر - كذبوه وعصوه واتبعوا أبناء الدنيا ممن غفل عن أمر ربه ، ومُتَّع بمال وولد وقالوا: لا نترك آلهتنا التي عبدناها نحن وآبائنا من قبل ، ولا عجب فقد أضلت الأصنام خلقا كثيرا ، فدعا عليهم : رب اخذل هؤلاء القوم الظالمين ولا تزدهم إلا ضلالا .

الإيضاح

(قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزدده ماله وولده إلا خسارا) أى قال نوح : رب إنهم عصوني فيما أمرتهم به ، وأنكروا ما دعوتهم إليه ، واتبعوا رؤسائهم الذين بطروا بأموالهم ، واغترقوا بأولادهم ، فكان ذلك زيادة في خسارتهم وخروجنا عن محجة الصواب ، وبعثنا من رحمة الله .

(ومكروا مكرا كبيرا) أى مكرا كبيرا ، فاحتالوا في الدين ، وصدّوا الناس عنه بأساليب شتى ، وأغروهم بأذى نوح عليه السلام .

(وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا وداً ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا) أى وقال بعضهم لبعض : لا تتركوا عبادة آلهتكم وتعبدوا رب نوح ، ولا سوا هذه الأصنام التي هي أكبر المعبودات وأعظمها .

وقد انتقلت هذه الأصنام إلى العرب فيما بعد . أخرج البخارى وابن المنذر وابن

مردويه عن ابن عباس قال : صارت هذه الأوثان في العرب بعد فكان :

وَدَّ : لَكَلْب .

سواع : هُدَيْل .

يغوث : لَغُطَيْف بِالْجُرْفِ عِنْدَ سَبَأ .

يعوق : لِهَمْدَانَ .

نسر : لِحَيْبِ آلِ ذِي السُّكَلَعِ .

وهناك أصنام أخرى لأقوام آخرين :

- اللات : لتثقيف بالطائف .
العزى : لسليم وغطفان وجشم .
مناة : لخزاعة بقديد .
أساف : لأهل مكة .
ناثلة : « »
هبل : « » وهو أكبر الأصنام وأعظمها عندهم ومن ثم كان يوضع فوق الكعبة .

وليس المراد أن أعيان هذه الأصنام صارت إليهم ، بل المراد أنهم أخذوا هذه الأسماء وسموا بها أصنامهم .

(وقد أضلوا كثيرا) أى وقد ضل بعبادة هذه الأصنام التي استحدثت على صور هؤلاء النفر ، كثير من الناس ، فقد استمرت عبادتها قرونا كثيرة كما قال الخليل عليه الصلاة والسلام فى دعائه : « وَاجْتُنِبْنِي وَابْنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ . رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّانِ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ » .

ثم دعا على قومه ليردهم وعنادهم فقال :

(ولا تزد الظالمين إلا ضلالا) أى ولا تزد الظالمين لكفرهم بآياتك إلا ضللا وطبعاً على قلوبهم حتى لا يهتدوا إلى حق ، ولا يصلوا إلى رشد .

وقصارى ما قاله عليه الصلاة والسلام — أن دعا عليهم بالخذلان ، وأن دعا لنفسه بالنصر وظهور دينه كما جاء فى قوله : « رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ » .

مَّا حَطَبْتُمْ أَهْلَهُمْ أَغْرَقُوا فَأَدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ

دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كُفَّارًا (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٢٨) .

شرح المفردات

مما خطيئاتهم : أى من أجل ذنوبهم وآثامهم ، أغرقوا : أى بالطوفان ، نارًا : أى عذابا فى القبر ، ديارا : أى أحدا ، تبارا . أى هلاكاً .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر مقالة نوح وشكواه إليه - أردفه بما جازاهم به من الفرق والعذاب ، وأنهم لم يجدوا من يذفهم عنهم ، ثم أخبر بدعاء نوح على قومه ، وعلل هذا بأنهم يضلون الناس وأنهم لو نسألوا لم يلدوا إلا الكفرة الفجرة ، ثم دعا لنفسه ولوالديه ولمن دخل سفينته من المؤمنين والمؤمنات بالمغفرة ، ودعا على قومه بالتبار والهلاك .

الإيضاح

(مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً ، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً) أى من أجل معاصيهم وذنوبهم أغرقهم الله بالطوفان ، وسيعذبهم فى قبورهم ، ولا يجدون من آلهتهم أنصاراً ولا أعواناً يذفعون عنهم ما كتب عليهم ، وبذا ضل سعيهم ، وخاب فالهم .

(وقال نوح رب لا تدر على الأرض من الكافرين دياراً) أى وقال نوح : رب لا تدع على وجه الأرض منهم أحداً .

ثم بين علة هذا الدعاء بشيئين :

(١) (إنك إن تذرهم يضلوا عبادك) أى إنك إن أبقيت منهم أحدا أضلوا عبادك الذين آمنوا بك .

(٢) (ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) أى وإنهم لا يلدون إلا الكفرة الفجرة . وقد كان دعاؤه عليهم بعد خبرته لهم ، وتمرسه بأحوالهم ، ومكثه بين ظهرانيهم ألف سنة إلا خمسين عاما .

روى أن الرجل منهم كان ينطلق بابنه إليه ويقول له : احذر هذا فإنه كذاب ، وإن أبى أوصانى بمثل هذه الوصية ، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك . وبعد أن دعا على الكفار ، دعا لنفسه ولأبويه وللمؤمنين والمؤمنات بالمغفرة فقال : (رب اغفرلى ولوالدىّ ولمن دخل بيتى مؤمنا والمؤمنين والمؤمنات) أى رب استر على ذنوبى وعلى والدىّ وعلى من دخل مسجدى ومصلاى مصدقا بنبوّتى . وبما فرضته علىّ ، وعلى المصدّقين بوحدانيتك ، والمصدقات بذلك من كل أمة إلى يوم القيامة .

ثم أعاد الدعاء على الكافرين مرة أخرى لغيظه منهم فقال :

(ولا تزد الظالمين إلا تبارا) أى ولا تزد الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بك إلا خسراانا وبعداً من رحمتك .

وصلّى ربنا على محمد وآله ، واغفرلى ولوالدىّ والمؤمنين والمؤمنات .

مقاصد هذه السورة

اشتملت هذه السورة على مقصدين :

(١) دعوة نوح قومه إلى الإيمان وقد حوت :

(أ) طلب تركهم للذنوب ، وأنهم إذا فعلوا ذلك أكثر الله لهم المال والبنين .

(ب) النظر في خلق السموات والأرض والأنهار والبحار .

(ج) النظر في خلق الإنسان وأنه يُخلق في الأرض كما يُخلق النبات ، وأن

الأرض مسخرة له يتصرف فيها كما يشاء .

(٢) كفر قومه وعقابهم في الدنيا والآخرة :

سورة الجن

هي مكية ، وآيها ثمان وعشرون ، نزلت بعد سورة الأعراف .
 ووجه اتصالها بما قبلها من وجوه :

- (١) أنه جاء في السورة السابقة : « اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ » وجاء في هذه السورة : « وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا » .
- (٢) أنه ذُكر في هذه السورة شيء يتعلق بالسماء كالسورة التي قبلها .
- (٣) أنه ذكر عذاب من يعصى الله في قوله : « وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا » وذكر هناك مثله في قوله : « أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَإِنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَإِنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَإِنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) .

شرح المفردات

النفر : ما بين الثلاثة والعشرة ، والجن : واحد من جنى كروم ورومي ، عجباً :
 أى عجبياً بديعاً مبيناً للكلام الناس في حسن النظم ودقة المعنى ، والجَد : العظمة
 يقال جَدَّ فلان في عيني : أى عظم ، قال أنس : كان الرجل إذا قرأ البقرة
 وآل عمران جَدَّ فينا : أى جلَّ قدره وعظم ، والسفيه : الجاهل ، شططا : أى غلوا
 في الكذب بنسبة صاحبة الولد إليه ، يعوذون : أى يلتجئون ، وكان الرجل إذا
 أمسى بقفر قال : أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه ، رهقا : أى تكبّرا ،
 وأصل الرهق : الإثم وغشيان المحارم .

المعنى الجملي

اعلم أن الله سبحانه سَمَّى سور كتابه بأسماء تبعث على النظر والاعتبار وتوجب
 التفكير ، فسمى بالأنعام والحشرات كالنمل والنحل والعنكبوت وبما هو أظف من
 ذلك كالنور ، كما سَمَّى ببعض الأنبياء ، كيوسف ويونس وهود ، وبعض الأخلاق
 كالنوبة ، وبعض السكواكب العلوية كالشمس والقمر والنجم ، وبعض الأوقات
 كالليل والفجر والضحى ، وبعض المعادن كالحديد ، وبعض الأماكن كالبهد ،
 وبعض النبات كالتيين وكل ذلك مما نراه .

وهنا سَمَّى هذه السورة بعالم لانراه وهو عالم الجن ، وهو عالم لم يعرف في الإسلام
 إلا من طريق الوحي ، وليس للعقل دليل عليه ؛ ولقد أصبحت هذه العوالم المستترة عنا
 الشغل الشاغل اليوم للعلماء والباحثين ، فصار علماء أوربا يدرسون عالم الملائكة وعالم
 الجن وعالم الأرواح ، ويطلعون على غوامض هذه العوالم ، فتحدث الناس مع أرواح
 أصحابهم الذين ماتوا ، واتصل العالم الإنسي بالعالم الجنى ، وبالعالم الأرواح الطاهرة
 وهم الملائكة ؛ وقد خطب السير أوايفرلودج من أشهر علماء الطبيعة في هذا العصر ،

في بلاد الإنكليز في مجمع من كبار العلماء قال : إنه حادث الأموات ، وإن هناك عقولا أسمى من عقولنا في عالم الأرواح ، وإنهم يهتمون بنا ، وإن إخواني من رجال الجامعة الروحية الذين ماتوا — كلتهم بعد موتهم ، وبرهنوا بأدلة قاطعة أنهم هم الذين يكلمونني ، وقال : إن كل مايقوله الأنبياء عن عالم الأرواح وعن الله فهو حق بلا تأويل .

وجاء في كتاب « إخوان الصفا » إن أرواح الأحياء بعد الموت هم الموسوسون إن كانوا أشرارا ، وهم الملمهون الناس الخبير إن كانوا أخيارا .

وقال شير محمد الهندي في كتابه في المجلس السابع : لقد جمعت بين ماجاء به الدين الإسلامي والكشف الحديث كقولهم : إن كل علم وكل خير وشرف حاصل في الأفتدة منشؤه الأرواح الفاضلة والأرواح الناقصة ، وهو بعينه ماجاء في الحديث : « في القلب لمتان لمة من اللآك و لمة من الشيطان » وهذا مصداق لقوله تعالى : « سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ » . والعجب أن الفرنيجة يكشفون هذا ولا يعلمون أنه مصداق دين الإسلام اه .

واعلم أن ماجاء في هذه السورة من السمعيات التي لادليل عليها من العقل قد بقي في الإسلام حوالي أربعة عشر قرنا تتلقاه الأمة بالقبول جيلا بعد جيل دون بحث عن حقائقه حتى عني علماء أوروبا في العصر الحديث بالبحث عنه ، فظهر لهم أن الأرواح الناقصة تسمع كلام الناس وتهتدي به ، وأنها لاتعرف ما فوق طاقتها ، فلا تهتدي بهدي الأرواح العالية ؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم مثلا قد ارتقى في العلم إلى حد لا يمكن الأرواح الناقصة أن تتعلم منه ؛ فما أشبه حالهم بحال الجهال الذين يسمعون من أبنائهم المتعلمين العلم ولا يفهمونه ، ومماثل حال الأرواح الناقصة بعد الموت إلا مثل حالها المشاهدة في الدنيا ، فإننا نرى الجهال لا يحلسون في مجالس العلم إلا قليلا حين يتنزل العلماء لإصلاح حالهم ، ولا يظهر لهم إلا القليل من ثمرات العلم ، فهم في الحياة الدنيا ممنوعون من السمع ، وقد يشتد المنع إذا كان في السماع مفسدة .

كعرفة الأسرار الحربية ، والخطط السياسية التي ينبغي أن تبقى سرا مكتوما بين الدول ، وهذا المنع الذي نشاهده أشبه بالمنع من استراق السمع ، لأنه إنما كان لحفظ الدرجات ، وهي المعارج لأربابها .

الإيضاح

(١) قل أوحى إلىّ أنه استمع نقر من الجن) أمر الله رسوله أن يظهر لأصحابه ما أوحى به إليه من قصص الجن ، لما في علمه من فوائد ومنافع للناس ، منها :

(١) أن يعلموا أنه كما بعث عليه الصلاة والسلام إلى الإنس فقد بعث إلى الجن .

(٢) أن يعلموا أن الجن يستمعون كلامنا ويفهمون لغاتنا .

(٣) أن يعلموا أن الجن مكلفون كالإنس .

(٤) أن يعلموا أن المؤمن منهم يدعو غيره من قبيلته إلى الإيمان .

(٥) أن تعلم قریش أن الجن على تمردها لما استمعت القرآن عرفت إعجازه .

وأمّنت به .

وظاهر الآية يدل على أنه عليه الصلاة والسلام علم استماعهم له بالوحي لا بالمشاهدة .

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس ، ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على

الجن ولا رأيهم ، وإنما انطلق بطائفة من الصحابة لسوق عكاظ ، وقد حيل بين

الجن والسماء بالشهب ، فقالوا : ماذا إلا شئ حدث ، فاضربوا مشارق الأرض

ومغاربها ، فمرّ من ذهب منهم إلى تهامة بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي الفجر

بأصحابه بنخلة ، فلما استمعوا له قالوا : هذا الذي حال بيننا وبين السماء ، ورجعوا إلى

قومهم وقالوا يا قومنا الخ ، فأنزل الله عليه : « قُلْ أُوْحِيََ إِلَيَّ » الآيات ، وقد كان

ذلك قبل الهجرة بثلاث سنين .

وقد حكى الله عن الجن أشياء :

(١) (فقالوا: إنا سمعنا قرآناً عجيباً. يهدي إلى الرشد فأمننا به ولن نشرك بربنا أحداً) أى قالوا لقومهم حين رجعوا إليهم كما جاء في قولهم: « فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ » إنا سمعنا كتاباً بديعاً يهدي إلى الحق وإلى الطريق المستقيم ، فصدقنا به ، ولن نعود إلى ما كنا عليه من الإشراك بالله .

(٢) (وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً) أى وإنيهم كما نفوا عن أنفسهم الإشراك بالله نزهاً ربهم عن الزوجة والولد ، لأن الصاحبة تتخذ للحاجة إليها ، ولأنها من جنس الزوج كما قال : « خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا » ، والولد للتكثير والاستئناس به ، والحاجة إليه حين السكبر وبقاء الذكور والشهرة كما قال :

وكم أب علا بابن ذرأشرف كما علت برسول الله عدنان

والله سبحانه منزه عن ذلك ، تعالى ربنا علواً كبيراً .

والخلاصة — علامك ربنا وسلطانة أن يكون ضعيفاً ضعف خلقه الذين تضطرم الشهوة إلى اتخاذ صاحبة أو ملامسة يكون منها الولد .

(٣) (وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططاً) أى وإن الجهال من الجن كانوا يقولون قولاً بعيداً عن الصواب ، بنسبة الولد والصاحبة إليه تعالى .

(٤) (وأنا ظننا أن لن نقول الإنس والجن على الله كذباً) أى وأنا كنا نظن أن لن يكذب أحد على الله تعالى ، فينسب إليه الصاحبة والولد ، ومن ثم اعتقدنا صحة قول السفيه ، فلما سمعنا القرآن علمنا أنهم كانوا كاذبين ، وهذا منهم باقرار بأنهم إنما وقعوا في تلك الجفالات بسبب التقليد ، وأنهم إنما تخلصوا منها بالاستدلال والبحث .

(٥) (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادهم رهقاً) أى وأن رجالاً من الإنس كانوا يستعيذون في القفر برجال من الجن ، فزادوا الجن بذلك طغياناً وغيياً ، بأن أضلّوهم حتى استعاذوا بهم .

وخالصة ذلك — أنهم لما استعاذوا بالجن خوفاً منهم ولم يستعينوا بالله ، استذلّوهم واجترأوا عليهم وزادوهم ظمأ .

(٦) (وأنهم ظنّوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً) أى وأن الجن ظنّوا كما ظننتم أن لن يبعث الله رسولا إلى خلقه ، يدعوهم إلى توحيده ، والإيمان برسوله واليوم الآخر .

وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاَهَا مُرْتَجَةً مُرْتَجَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا (٨) وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (٩) وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا (١١) وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهَدَىٰ آمَنَّا بِهِ ، فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ ، فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) .

شرح المفردات

لمسنا السماء : أى طلبنا خبرها كما جرت بذلك عادتنا ، والحرس والحراس ، واحدم حارس ، وهو الرقيب ، شديد : أى قويا ، والسمع : الاستماع ، والشهب : واحدها شهاب ، وهو الشعلة المقتبسة من نار الكوكب ، رصدا : أى أرصد له ليرمى به

رشدًا: أي خيرا وصلاحا ، قِدَادًا : أي جماعات متفرقة وفرقا شتى ، ويقال صار القوم قِدادا: إذا تفرقت أحوالهم ، واحدها قِدَّة وهي القطعة من الشيء ، هربا : أي هاربين إلى السماء ، والمراد بالهدى القرآن ، والبخس : النقص ، والرهق الظلم والمكروه الذي يغشى للظلم ، القاسطون : أي الجائرون العادلون عن الحق ، تحرَّوْا رشدًا : أي قصدوا طريق الحق ، خطبا : أي وقودا للنار ، والطريقة : هي طريق الإسلام ، غَدَقًا : أي كثيرا ، يسلكه : أي يدخله ، صعدا : أي شاقا يعلو المئذنب ويغلبه ، يقال فلان في صعد من أمره : أي في مشقة ، ومنه قول عمر : ماتصعدني شيء كما تصعدني في خطابة النكاح ، أي ماشق عليّ ، وكأنه إنما قال ذلك لأنه كان من عادتهم أن يذكروا جميع ما يكون في الخطاب من أوصاف موروثه ومكتسبة ، فكان يشق عليه أن يقول الصدق في وجه الخطاب وعشيرته .

الإيضاح

(٧) (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا) يخبر سبحانه عن مقال الجن حين بعث محمد صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه القرآن وحفظ منهم ، إن السماء ملئت حرسا شديدا وشهبا تحرسها من سائر أرجائها وتمننا من استراق السمع كما كنا نفعل .

أخرج أحمد والترمذي والنسائي عن ابن عباس قال : كان للشياطين مقاعد في السماء يسمعون فيها الوحي ، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعا ، فأما الكلمة فتكون حقا ، وأما ما زادوا فيكون باطلا ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مُنموا مقاعدهم ، فذكروا ذلك لإبليس ، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك ، فقال لهم ما هذا إلا من أمر قد حدث في الأرض ، فبعث جنوده فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما يصلي بين جبلين بمكة ، فأبوه فأخبروه ، فقال : هذا هو الحدث الذي حدث في الأرض .

(٨) (وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع) أى وأنا كنا نقعد قبل ذلك فيها مقاعد خالية من الحرس والشهب ، لنسترق السمع ، فطردنا منها حتى لانسترق شيئا من القرآن ونلقيه على ألسنة الكهان ، فيلتبس الأمر ولا يدرى الصادق ، فكان ذلك من لطف الله بخلقه ، ورحمته بعباده ، وحفظه لكتابه العزيز .

(فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصداً) أى فمن يرّم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهابا مرصدا لا يتخطاه ولا يتعداه ، بل يهلكه ويحقه .

وإنا لنؤمن بما جاء فى الكتاب الكريم من أن الجن كانوا يسترقون السمع ، ومؤمنوا من ذلك بعد بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكن لانعرف كيف كانوا يسترقون السمع ، ولا نعرف كنه الحرس الذين منعوم ، ولا المراد بالشهب التى كانت رصداً لهم ؛ والجن أجسام نارية فكيف تحترق من الشهب .

ويرى قوم أن مقاعد السمع هى مواضع الشيد التى يوسوس بها الجن فى صدور الناس ، ليصدوهم عن اتباع الحق ، والحرس : هى الأدلة العقلية التى نصبها سبحانه لهداية عباده ، والشهب الأدلة الكونية التى وضعها فى الأنفس والآفاق .

وعلى هذا يكون المعنى : إن القرآن الكريم بما نصب من الأدلة العقلية والأدلة الكونية حرس للدين من تطرق الشيد التى كان الشياطين يوسوسون بها فى صدور الزائفين ، ويحور كونها فى قلوب الضالين ، لينعوم من تقبل الدين والاهتداء بهديه ، فمن يفكر فى إلقاء الشكوك والأوهام فى نفوس الناس بعدئذ يجد البراهين التى تقنعها من جذورها .

(٩) (وأنا لاندري أشرّ أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً) أى وإن السماء لم تحرس إلا لأحد أمرين :

(أ) إما لعذاب يريد الله أن ينزله على أهل الأرض بغتة .

(ب) وإما للنبى مرشد مصلح .

وكانهم يقولون : أعذبا أراد الله أن ينزله بأهل الأرض ، بمنعه إيانا السمع من السماء ورجه من استمع منا بالشهب ، أم أراد بهم ربهم الهدى ، بأن يبعث منهم رسولا مرشدا يهديهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم ؟ .

(١٠) (وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قِدَا) أى وأنا منا المسلمون العاملون بطاعة الله ، ومنا قوم دون ذلك ، وأنا كنا أهواء مختلفة وفرقا شتى ، فمننا المؤمن والفاسق والكافر كما هي الحال فى الإنس .

(١١) (وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا) أى وأنا علمنا أن لن نعجز الله فى الأرض أينما كنا فى أقطارها ، ولن نعجزه هربا إن طلبنا ، فلا نفوته بحال .

والخلاصة — إن الله قادر علينا حيث كنا ، فلا نفوته هربا .

(١٢) (وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به ، فن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا) أى وأنا لما سمعنا القرآن الذى يهدى إلى الطريق المستقيم صدقنا به وأقررنا بأنه من عند الله ، ومن يصدق بالله وبما أنزله على رسله فلا يخاف نقصا من حسناته ، ولا ذنبا يحمل عليه من سيئات غيره قاله قتادة .

وقصارى ذلك — أنه ينال جزاءه وافرا كاملا .

(١٣) (وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا) أى وأنا منا المؤمنون الذين أطاعوا الله وأحببتوا إليه وعملوا صالح الأعمال ، ومنا الجائرون عن النهج القويم وهو الإيمان بالله وطاعته ، ومن آمن بالله وأطاعه فقد سلك الطريق الموصل إلى السعادة ، وقصد ما ينتجيه من العذاب .

ثم ذم الجنِّ الكافرين منهم فقالوا :

(وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) أى وأما الجائرون عن سنن الإسلام فكانوا حطبا لجهنم توقد بهم ، كما توقد بكفرة الإنس ، وقد ذكر ثواب المؤمنين منهم بقوله : « فأولئك تحروا رشدا » .

وإلى هنا انتهى كلام الجن ثم عاد إلى ذكر الموحى به إلى رسوله فقال :
 (وَأَنْ لَّوِاسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا) أَي وَأَوْحَى إِلَيْهِ أَنَّهُ
 لَوِاسْتَقَامَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى مِلَّةِ الْإِسْلَامِ ، لَوَسَّعْنَا عَلَيْهِمْ أَرْزَاقَهُمْ ، وَلِبَسْنَا لَهُمْ
 فِي الدُّنْيَا .

وإنما خص الماء الغدق بالذكر ، لأنه أصل المعاش ، وكثرته أصل السعة
 ومن ثم قيل : حيثما كان الماء كان المال ، وحيثما كان المال كانت الفتنة ، ولندرة
 وجوده بين العرب ، ومن ثم آمن الله على نبيه بقوله : « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ »
 على تفسير الكوثر بالنهر الجاري ، ونحو الآية قوله : « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا
 وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » .

وسرُّ هذا ما عرفت غير مرة من أن الخصب والسعة لا يوجدان إلا حيث توجد
 الطمأنينة والعدل ويزول الظلم ، وتكون الناس سواسية في نيل الحقوق ، فلا ظلم
 ولا إرهاب ، ولا محاباة ولا رُشاشا في الأحكام .

ثم ذكر سبب البسط حينئذ فقال :

(لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ) أَي لِنَحْتَبِرَهُمْ أَي لِنَعَامِلَهُمْ مَعَامِلَةَ الْخْتَبِيرِ لِنَرَى هَلْ يَشْكُرُونَ نَا عَلَى
 هَذِهِ النِّعَمِ ، فَإِنْ وَقَّوْهَا حَقَّهَا كَانَ لَهُمْ مَنَى الْجِزَاءِ الْأَوْفَى ، وَإِنْ نَكَصُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ
 اسْتَدْرَجْنَاهُمْ وَأَمَلْنَاهُمْ ، ثُمَّ أَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ، كَمَا قَالَ : « وَأَمَلِي لَهُمْ إِنْ
 كِيدِي مَتِينٌ » .

(ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعبا) أَي وَمَنْ يَعْرُضُ عَنِ الْقُرْآنِ
 وَعِظَاتِهِ ، فَلَا يَتَّبِعُ أَوْامِرَهُ وَلَا يَنْتَهِي عَنِ نَوَاهِيهِ — نَدْخَلُهُ فِي الْعَذَابِ الشَّقِيقِ الَّذِي
 يَغْلُوهُ وَيَقْلِبُهُ ، وَلَا يَطِيقُ لَهُ حِمْلًا .

وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا (٢٣) حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْمِعُونُ مَنْ أَوْصَفُ نَاصِرًا وَاَقْلَ عَدَدًا (٢٤) .

شرح المفردات

المساجد : واحدها مسجد ، موضع السجود للصلاة والعبادة ، ويدخل فيها الكنائس والبيع ومساجد المسلمين ، فلا تدعوا : أى فلا تعبدوا ، يدعوه : أى يعبده ، لِبَدًا : (بكسر اللام وفتح الباء) أى جماعات ، واحدها لبدة ، والمراد متراكمين متزاحمين ، ولا رشدا : أى ولا نفعا ، ملتحدًا : أى ملجأ يركن إليه ، قال : يَأْلَهْفَ نَفْسِي وَنَفْسِي غَيْرُ مُجْدِيَةٍ عَنِّي وَمَا مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ مُلْتَحَدٌ بِلَاغًا مِنَ اللَّهِ : أى تبليغا لرسالاته .

الإيضاح

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا) أى قل أوحى إلىَّ أنه استمع نفر من الجن ، وأن المساجد لله فلا تعبدوا فيها غير الله أحدا ولا تشركوا به فيها شيئا . وعن قتادة : كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كفاؤهم وبيتهم أشركوا بالله معبودات أخرى لهم ، فأمرنا بهذه الآية أن نخلص لله تعالى الدعوة إذا دخلنا المساجد .

وقال الحسن : المراد بالمساجد كل موضع سُجِد فيه من الأرض سواء أعد لذلك أم لا ، إذ الأرض كلها مسجد لهذه الأمة .

وكانه أخذ ذلك مما في الحديث الصحيح «جُلت لى الأرضُ مُسجداً وطهوراً» .
(وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً) أى ولما قام محمد صلى الله عليه وسلم يعبد الله ، كاد الجن يكونون جماعات بعضها فوق بعض تعجباً مما شاهدوا من عبادته ، وسمعوا من قراءته ، واقتداء أصحابه به قياماً وركوعاً وسجوداً ، إذ رأوا ما لم يروا مثله ، ولا سمعوا مثل ما سمعوا .

وقال الحسن وقتادة : إنه لما قام عبد الله بالرسالة يدعوا لله وحده مخالفاً للمشركين فى عبادتهم الأوثان — كاد الكفار لتظاهرهم عليه وتعاونهم على عداوته يزدحمون متراكبين جماعات جماعات .

قال مقاتل : إن كفار مكة قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إنك جئت بأمر عظيم ، وقد عادت الناس كلهم فارجع عن هذا ، فأنزل الله :
(قل إنما أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا) أى قل لأولئك الذين كادوا يكونون عليك لبداً : إنما أعبد الله ربي ولا أشرك به فى العبادة أحداً ، وذلك ليس ببدع ولا مستنكر يوجب العجب والإطباق على عداوتى .

ثم بين أنه لا يملك من الأمر شيئاً ، فهو لا يستطيع هدايتهم ولا جلب الخير لهم فقال :

(قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً) أى قل أيها الرسول لأولئك المشركين الذين ردوا عليك ماجئتهم به من النصيحة : إني لا أملك لكم ضراً فى دينكم ولا دنياكم ، ولا نفعا أجليه لكم ، وإنما الذى يملك ذلك كله هو الله الذى له ملك كل شيء ، وهو القادر على ذلك وحده وكأنه عليه السلام أمر أن يقول : ما أردت إلا نفعكم فقابلتمونى بالإساءة ، وليس فى استطاعتي النفع الذى أردت ، ولا الضر الذى أكاثكم به ، إنما ذان الله .

وفي هذا تهديد عظيم لهم وتوكل على الله عز وجل وأنه هو الذي يجزيه بحسن صنيعه ويجزيهم بسوء صنيعهم ، وفيه إيماء إلى أنه لا يدع التبليغ لتظاهرهم عليه .
ثم بين عجزه عن شئون نفسه بعد عجزه عن شئون غيره فقال :

(قل إني لن يجيرني من الله أحد ، ولن أجد من دونه ملتحداً ، إلا بلاغا من الله ورسالاته) أى قل : إني لن يجيرني من الله أحد من خلقه إن أراد بي سوءاً ، ولن يضرني منه ناصر ، ولا أجد من دونه ملجأً ولا معيناً ، لكن إن بلغت رسالته وأطعته أجازني .

والخلاصة — إني لن يجيرني من الله أحد إن لم أبلغ رسالاته .
وتعدّد بين جزاء العاصين لله ورسوله فقال :

(ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً) أى ومن يعص الله فيما أمر به ، ونهى عنه ، ويكذب برسوله فإن له ناراً يصلها ما كثر فيها أبداً إلى غير نهاية ، ولا يحيد عنها ولا خروج منها .

ثم سلى رسوله وسرّى عنه وغيرهم بقصور نظرهم عن الجن مع ادعائهم الفطنة ، وقلة إنصافهم ومبادتهم بالتكذيب والاستهزاء ، بدل مبادهة الجن بالتصديق والاستهداء فقال :

(حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقلّ عدداً) أى ولا يزالون يستضعفون المؤمنين ويستهزئون بهم ، حتى إذا رأوا ما يوعدون من فتون العذاب فيستبين لهم من المستضعفون ؟ المؤمنون الموحدون لله تعالى ، أم المشركون الذين لا ناصر لهم ولا معين ؟

وقصارى ذلك — إن المشركين لا ناصر لهم ، وهم أقلّ عدداً من جنود الله عز وجل .

ونظير الآية قوله : « حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ » .

قُلْ إِنْ أَدْرَى أَقْرَبُ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥)
 عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ
 فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا
 رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨).

المعنى الجملى

أمر سبحانه رسوله أن يقول للناس : إنه لا علم له بوقت الساعة ، ولا يدري
 أقرب وقتها أم بعيد ، وأنه لا يعلم شيئاً من الغيب إلا إذا أعله الله به ، وهو سبحانه
 يعلم أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم ، ويعلم جميع الأشياء إجمالاً وتفصيلاً .
 قال مقاتل : إن المشركين لما سمعوا قوله تعالى : « حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ
 فَسَيَمُومُونَ مِنْ أضعْفٍ نَاصِرًا وَأَقْلَعُ عَدَدًا » قال النضر بن الحارث : متى يكون
 هذا اليوم الذى توعدنا به ؟ فأنزل الله تعالى : « قُلْ إِنْ أَدْرَى أَقْرَبُ مَا تُوْعَدُونَ »
 إلى آخر الآيات .

الإيضاح

(قُلْ إِنْ أَدْرَى أَقْرَبُ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ؟) أمر الله رسوله أن
 يقول للناس : إن الساعة آتية لا ريب فيها ، ولكن وقتها غير معلوم ، ولا يدري
 أقرب أم يجعل له ربى أمداً بعيداً ؟
 وقد كان صلى الله عليه وسلم يُسأل عن الساعة فلا يجيب عنها ، « ولما تبدى له
 جبريل فى صورة أعرابى كان فيما سأله أن قال : يا محمد أخبرنى عن الساعة ؟ قال
 ما المسئول عنها بأعلم من السائل » ولما ناداه ذلك الأعرابى بصوت جهورى فقال
 « يا محمد متى الساعة ؟ قال ويحك إنها كائفة فما أعددت لها ؟ قال أما إني لم أعد لها .

كثير صلاة ولا صيام ، ولكنى أحب الله ورسوله ، قال صلى الله عليه وسلم فأنت مع من أحببت » قال أنس : فما فرح المسلمون بشئ ، فرحهم بهذا الحديث .

(علم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول) أى علم ما غاب عن أبصار خلقه فلم يروه ، وهذا لا يعلم به أحد إلا من ارتضى من الرسل صلوات الله عليهم ، فإنه يطلعهم على ما شاء منه .

ونحو الآية قوله : « وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ » .

وفي الآية إيماء إلى إبطال الكهانة والتنجيم والسحر ، لأن أصحابها أبعد الناس عن الارتضاء وأدخلهم في السخط ؛ وإلى أن من ادعى أن النجوم تدله على ما يكون من حياة أو موت أو غير ذلك فقد كفر بالقرآن ، وفيها أيضا إبطال للسكرامات ، لأن من تضاف إليهم وإن كانوا أولياء مرتضين فليسوا رسلا ، وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب .

وقال الرازى : المراد أنه لا يطلع على غيبه الخصوص وهو قيام الساعة ، والذي يدل على ذلك أمور :

(١) أن أرباب الأديان والمثل مطبقون على صحة علم التعبير وتفسير الرؤيا ، وأن المعبر قد يخبر عن الوقائع الآتية في المستقبل ويكون صادقا فيها .

(٢) أن الكاهنة البغدادية التي نقلها السلطان سنجر بن ملك شاه من بغداد إلى خراسان وسألها عن أحوال آتية ، ذكرت أشياء ثم وقعت وفق كلامها .

(٣) أنا نشاهد في أصحاب الإلهامات الصادقة (وليس ذلك مختصا بالأولياء بل قد يكون في السحرة) من يكون صادقا في كثير من أخباره ، وكذلك الأحكام النجومية قد تكون مطابقة موافقة لما سيكون في كثير من الأحيان ، وإذا كان ذلك مشاهدا محسوسا ، فالقول بأن القرآن يدل على خلافه مما يجرى إلى الطعن في القرآن الكريم ، فعلنا أن التأويل الصحيح ما ذكرناه بتصرف .

(فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً) الرصد القوم يرصدون كالحرس ، والراصد للشئ الرقيب له ، والترصد الترقب ، والمراد بهم هنا الملائكة الحفظة ؛ أى فإنه يسلك من بين يدي من ارتضى من رسله ، ومن خلفهم حفظة من الملائكة يحفظونهم من وساوس شياطين الجن وتخاليطهم حتى يبلغوا ما أوحى به إليهم ، ومن زحمة شياطين الإنس حتى لا يؤذونهم ولا يضرورهم .

وعن الضحاك : ما بُعثَ نبي إلا ومعاه ملائكة يحرسونه من الشياطين الذين يتشبهون بصورة الملك ، فإذا جاء شيطان في صورة الملك قالوا هذا شيطان فاحذره ، وإن جاءه الملك قالوا هذا رسول ربك .

والخلاصة — أنه يدخل حفظة من الملائكة يحفظون قواه الظاهرة والباطنة من الشياطين ويعصومونه من وساوسهم .

ثم علل هذا الحفظ بقوله :

(ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم) أى إنه يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته ، ويحفظوا ما ينزله إليهم من الوحي ، ليعلم أن قد أبلغوا هذه الرسالات ؛ والمراد ليعلم الله ذلك منهم علم وقوع في الخارج كما جاء نحو هذا في قوله : « **وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَآيَعْلَمَنَّ الْمُنَاقِقِينَ** » .

(وأحاط بما لديهم وأحصى كل شئ عدداً) أى وهو سبحانه قد أحاط علماً بما عند الرصد من الملائكة ، وأحصى ما كان وما سيكون فرداً فرداً ، فهو عالم بجميع الأشياء منفرد بذلك على أتم وجه ، فلا يشاركه في ذلك الملائكة الذين هم وسائط العلم .

والخلاصة — أن الرسول المرتضى يُعلمه الله بوساطة الملائكة بعض الغيوب مما له تعلق برسالاته ، وهو سبحانه محيط علماً بجميع أحوال أولئك الوسائط ، وعالم بجميع الأشياء على وجه تفصيلي ، فإين علم الوسائط من علمه ؟

ما تضمنته هذه السورة

اشتملت هذه السورة على مقصدين :

(١) حكاية أقوال صدرت من الجن حين سمعوا القرآن كوصفهم له بأنه كتاب يهdy إلى الرشd ، وأن الرب سبحانه تنزه عن الصاحبة والولد ، وأنهم ما كانوا يظنون أن أحدا يكذب على الله ، وأن رجالا من الإنس كانوا يستعيذون في القفر برجال من الجن ، وأن الجن طلبوا خبر العالم العلوي فمنعوا ، وأن الجن لا يدرون ماذا يحل بالأرض من هذا المنع ، وأن الجن منهم الأبرار ومنهم الفجاز ، ومنهم مسلمون وجأرون عادلون عن الحق .

(٢) ما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتبليغه إلى الخلق ، ككونه لا يشرك بربه أحدا ، وأنه لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ، وأنه لا يمنعه أحد من الله إن عصاه ، وأنه صلى الله عليه وسلم لا يدري متى يكون وقت تعذيبهم ، فالعلم لله وحده .

سورة المزمّل

هى مكية إلا قوله تعالى . « وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا .
 وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا » . وقوله : « إِنْ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ
 تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ نُجُمِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ » إلى آخر
 السورة فمدنية .

وعدد آياتها عشرون نزلت بعد سورة القلم .

ووجه اتصالها بما قبلها :

(١) أنه سبحانه ختم سورة الجن بذكر الرسل عليهم السلام ، وافتتح هذه

بما يتعلق بخاتمهم عليه السلام .

(٢) أنه قال فى السورة السالفة : « وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ »

وقال فى هذه : « قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأْتِيهَا الْمُرْمَلُ (١) قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ

قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا

ثَقِيلًا (٥) إِنْ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنْ لَكَ فِي النَّهَارِ

سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ

وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) .

شرح المفردات

المزمل : أصله المزمّل ؛ من قولهم زمّل بثيابه إذا تلفف بها ، ورتل القرآن : أى أقرأه على تؤدة وتمهل مع تبيين حروفه ، يقال ثمررتل (بسكون التاء وكسرها) : إذا كان مفجعاً لا تتصل أسنانه بعضها ببعض ، سنلقى عليك : أى سنوحى إليك ، قولاً ثقيلاً : المراد به القرآن لما فيه من التكليف الشاق على المكلفين عامة وعلى الرسول خاصة ، لأنه يتجملها بنفسه ويبلغها إلى أمته ، ناشئة الليل : هى النفس التى تنشأ من مضجعتها للعبادة : أى تنهض وترتفع ؛ من قولهم نشأت السحابة إذا ارتفعت وطأ : أى موأطأة ؛ ووافقة من قولهم واطأت فلاناً على كذا إذا وافقته عليه ومنه قوله تعالى : « لِيُؤَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ » أى ليوافقوا ، أقوم قليلاً : أى أثبت قراءة ، لحضور القلب وهدوء الأصوات ، سبحا طويلاً : أى تقلبنا وتصرفنا فى مهام أمورك ، واشتغلاً بشواغلك ، فلا تستطيع أن تنفرغ للعبادة ، فعليكها فى الليل ، وأصل السبح : السير السريع فى الماء ، واذا كر اسم ربك : أى ودم على ذكره ليلاً ونهاراً ، وتبتل إليه تبتيلاً : أى انقطع عن كل شىء إلى أمر الله وطاعته ، واتخذته وكليلاً : أى وفوض كل أمر إليه .

المعنى الجملى

قال ابن عباس : أول ما جاء جبريل النبى صلى الله عليه وسلم خافه وظن أن به مساً من الجن ، فرجع من الجبل مرتعداً وقال : زمّلونى زمّلونى ، فبينما هو كذلك إذ جاءه جبريل وناداه . « يا أيها المزمل . قم الليل إلا قليلاً . نصفه أو انقص منه قليلاً . أو زد عليه » ثم أمره بتريال القرآن وقراءته بتؤدة وتأن ، ثم أخبره بأنه سيلقى عليه قرآناً فيه التكليف الشاق على المكلفين ، وأن النهوض للعبادة بالليل شديد الوطأة ولكنه أقوم لقراءة القرآن لحضور القلب ، أما قراءته فى النهار فتكون مع اشتغال

النفوس بأحوال الدنيا ، ثم أمره بذكر ربه والانقطاع إليه بالعبادة ، وتفويض
أموره كلها إليه .

الإيضاح

(يأيها المزمل . قم الليل إلا قليلا) أى يأيها النبي المزمل بثيابه ، المتهيئ
للصلاة ، دم عليها الليل كله إلا قليلا .
ثم فسر هذا القليل بقوله :

(نصفه أو انقص منه قليلا . أوزد عليه) أى إلا قليلا وهو النصف أو انقص
من النصف أوزد على النصف إلى الثلثين ، فهو قد خير بين الثلث والنصف والثلثين .
وقصارى ذلك — أنه أمر أن يقوم نصف الليل أو يزيد عليه قليلا أو ينقص
منه قليلا ، ولا حرج عليه في واحد من الثلاثة .

وبعد أن أمره بقيام الليل للصلاة أمره بترتيل القرآن فقال :

(ورتل القرآن ترتيلا) أى اقرأه على تمهل ، فإنه أعون على فهمه وتدبره ،
وكذلك كان صلوات الله عليه ، قالت عائشة رضی الله عنها : كان يقرأ السورة فيرتهاها
حتى تكون أطول من أطول منها ، وجاء في الحديث : « زينوا القرآن بأصواتكم ،
ولقد أوتى هذا زممارا من زممير آل داود ، يعنى أبا موسى الأشعري ، فقال
أبو موسى : لو كنت أعلم أنك كنت تسمع قراءتى لحببته لك تحميرا » .

وأخرج العسكري في كتابه المواعظ عن علي كرم الله وجهه « أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم سئل عن هذه الآية فقال : بينه تبييننا ولا تنتره نثر الدؤل :
(أردأ التمر) ولا تهذه (لاتسرع به) هذ الشعر ، قفوا عند عجائبه ، وحركوا به
القلوب ، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة » .

وعن عبد الله بن مغفل قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح
مكة على ناقته يقرأ سورة الفتح فوجع في قراءته » أخرجه الشيخان .

وعن جابر قال : « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نقرأ القرآن وفيما العربي والعجمي فقال : اقرءوا وكل شئ حسن ، وسيجيء أقوام يقيمونه كما يقام القدح : (السهم) يتمجلونه ولا يتأجلونه ، لا يجاوز تراقيهم » رواه أبو داود .

قال في فتح البيان : والمقصود من الترتيل إنما هو حضور القلب عند القراءة لا مجرد إخراج الحروف من الحلقوم بتعويج الوجه والغم وألحان الغناء كما يعتاده قراء هذا الزمان من أهل مصر وغيرها في مكة المكرمة وغيرها ، بل هو بدعة أحدثها البطالون الأكلون والحقى الجاهلون بالشرائع وأدلتها الصادقة ، وليس هذا بأول قارورة كسرت في الإسلام اه .

والحكمة في الترتيل : التمكن من التأمل في حقائق الآيات ودقائقها ، فعند الوصول إلى ذكر الله يستشعر عظمته وجلاله ، وعند الوصول إلى الوعد والوعيد يحصل الرجاء والخوف ويستنير القلب بنور الله - وبمعكس هذا فإن الإسراع في القراءة يدل على عدم الوقوف على المعاني ، والنفس تبتهج بذكر الأمور الروحية ، ومن سرّ بشئ أحب ذكره ؛ كما أن من أحب شيئاً لا يحب أن يمر عليه مسرعاً .

ثم أتى بجملة معترضة بين الأمر بالقيام وتعليله الآتي ليبين سهولة ما كلفه من القيام فقال :

(إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً) أى إنا سننزل عليك القرآن وفيه الأمور الشاقة عليك وعلى أتباعك من أوامر ونواه ، فلا تبال بهذه المشقة وأمرن عليها لما بعدها .

وقال الحسن بن الفضل : ثقيلاً أى لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق ، ونفس مزينة بالتوحيد ، وقال ابن زيد : هو والله ثقیل مبارك ، كما ثقل في الدنيا يتقبل في الميزان يوم القيامة .

وقد يكون المراد - إنه ثقیل في الوحي فقد جاء في حديث البخارى ومسلم : « إن الوحي كان يأتيه صلى الله عليه وسلم أحياناً في مثل صلصلة الجرس ، وهذا أشده

عليه ، فيفصم عنه (يفارقه) وقد وعى ما قال . وأحياناً يتمثل له الملك رجلاً فيكلمه
فيعبى ما يقول ، وكان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ، وإن جبينه
ليتفصد عرقاً « يجرى عرقه كما يجرى الدم من الفاصد .

ثم علل الأمر بقيام الليل فقال :

(إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قبلاً) أى لأن قيام الليل أشد مواطاةً
وموافقة بين القلب واللسان ، وأجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها ، وهو أفرغ
للقب من النهار ، لأنه وقت انتشار الناس وانعط الأصوات والبحث عن أمور
المعاش ، ومن ثم قال :

(إن لك في النهار سبحا طويلاً) أى إن لك في النهار تقلباً وتصرفاً في مهام
أمورك واشتغالا بشواغلك ، فلا تستطيع أن تتفرغ فيه للعبادة ، فعليك بالتهجد ،
فإن مناجاة الرب يعوزها الفراغ والنخلى عن العمل .
ثم أمر رسوله بمداومة الذكر والإخلاص له فقال :

(وأذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً) أى ودم على ذكره ليلاً ونهاراً بالتسبيح
والتهليل والتحميد والصلاة وقراءة القرآن ، وانقطع إليه بالعبادة ، وجرّد إليه نفسك
وأعرض عما سواه .

ونحو الآية قوله : « فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ » أى فإذا فرغت من شئونك ،
فانصب في طاعته وعبادته ، لتكون فارغ القلب ، خالياً من الهواجس
والوساوس الدنيوية .

ثم بين السبب في الأمر بالذكر والتبتل فقال :

(رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً) أى هو المالك المتصرف
في المشارق والمغرب ، لا إله إلا هو ، فعليك أن تتوكل عليه في جميع أمورك .

ونحو الآية قوله : « فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ » . وقوله : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ
وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » .

وجاء في كلامهم : من رضى بالله وكبلا ، وجد إلى كل خير سبيلا .
وقد ذكروا أن مقام التوكل فوق مقام التبتل ، لما فيه من الدلالة على غاية
الحب له تعالى وأنشدوا :

هواى له فرض تمطّف أوجفا ومنهله عذب تكدر أو صفا
وكلت إلى المشوق أمرى كلّه فإن شاء أحيانى وإن شاء أنلنا

وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَذَرْنِي
وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِييًا (١٢)
وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتْ
الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا (١٤) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ
كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ
أَخْذًا وَّيَبِلًا (١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ
شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (١٨) .

شرح المفردات

الهجر الجليل : ما لا عتاب معه ، والنعمة (بفتح النون) التنعيم (وبكسر النون)
الإععام ، مهلهم : أى اتركهم برفق وتأنٍ ولا تهتم بشأنهم ، والأنكال : واحدها نكل
(بكسر النون وفتحها) وهو الفئيد الثقيل ، قالت الخنساء :

دعاك فقطعت أنكاله وقد كن قبلك لا تقطع

والجحيم : النار الشديدة الإيقاد ، ذا غصّة : أى لا يستساع فى الحلق فلا يدخل
ولا يخرج ، ترجف : أى تضطرب وتترزل ، كثيبا : أى رملا مجتمعا ، من قولهم : كشب

الشيء إذا جمعه ، مهيبلا : أى رِخواً لئنا إذا وطئته القدم زل من تحتها ، والوبيل :
التقيل الردىء العقبى ، من قولهم : كلاً و بيل : أى وخيم لا يستمرأ لثقله ، والشيب :
واحد من أشيب ، منفطر : أى منشق .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر معاملة العباد لبارئهم وخالقهم من العدم — أردف ذلك معاملة
بعضهم بعضاً ، فبين أن ذلك يكون بأحد أمرين :

(١) مخالطة فصبر جميل على الإيذاء والإيحاء .

(٢) هجر جميل بالمجانبة بالقلب والهوى ، والمخالقة فى الأفعال مع المداراة
والإغضاء وترك المكافأة .

ثم أمر رسوله أن يترك أمر المشركين إليه ، فهو الكفيل بمجازاتهم ، ثم ذكر
أنه سيعذبهم بالأنكال والنار المستعرة ، والطعام ذى النصة فى يوم القيامة حين تكون
الجبال كشيئا مهيبلا .

وبعد أن خوفهم عذاب يوم القيامة خوفهم أهوال الدنيا ، وأنه سيكون لهم
فيها مثل ما كان للأمم المكذبة قبلهم كقوم فرعون حين عصوا موسى فأخذهم
أخذ عزيز مقتدر ، ثم عاد إلى تخويفهم بالآخرة مرة أخرى ، وأبان لهم أن أهوالها
بلغت حداً تشيب من هوله الولدان ، وأن السماء تتشقق منه .

الإيضاح

(واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا) أى واصبر على ما يقول فيك
وفى ربك سفهاء قومك المكذبون لك ، واهجرهم هجرا جميلا بأن تداريهم وتجانبهم
وتغضى عن زلاتهم ولا تمناتهم .

ونحو الآية قوله : « وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَحُوسُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ

حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ» وقوله: « فَأَعْرَضَ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا
وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » ، وقوله: « فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَعِظَهُمْ وَقُلْ لَهُمْ
فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا » .

ثم تهددهم وتوعدهم ، وهو العظيم الذى لا يقوم لغضبه شئ فقال :

(وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا) أى ودعنى والمكذبين المترفين
أصحاب الأموال ، فإني أكفيك أسرم وأجازيهم بما هم له أهل ، وتمهل عليهم قليلا
حتى يبلغ الكتاب أجله ، وسيذوقون العذاب الذى أعدته لهم .

ونحو الآية قوله: « مُتَّمِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّطَّرَّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ » .

والخلاصة — خلّ بينى وبينهم ، فسأجازيهم بما يستحقون .

روى أنها نزلت فى صنديد قریش ورؤساء مكة من المستهزئين ؛ وقالت عائشة
رضى الله عنها : لما نزلت هذه الآية لم يكن إلا يسير حتى كانت وقعة بدر .

ثم ذكر من ألوان العذاب التى أعدها لهم أمورا أربعة :

(١) (إن لدينا أنكالا) أى إن لدينا لهؤلاء المكذبين آياتنا قيودا ثقيلة توضع

فى أرجلهم كما يفعل بالجرمين فى الدنيا إذلالاً لهم . قال الشعبي : أترو أن الله
جعل الأنكال فى أرجل أهل النار خشية أن يهربوا ؟ لا والله ، ولكنهم إذا أرادوا
أن يرتفعوا استقلت بهم .

(٢) (وجعيا) أى نارا مستعرة تشوى الوجوه .

(٣) (وطعاما ذاغصة) أى طعاما لا يستساغ ، فلا هو نازل فى الحلق ، ولا هو

خارج منه ، كالزقوم والضريع كما قال تعالى : « لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ،
لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ » وقال : « إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ طَعَامٌ الْأَثِيمِ » .

(٤) (وعذابا ألما) أى وألوانا أخرى من العذاب المؤلم الموجه الذى لا يعلم

كنهه إلا اعلام الغيوب .

والخلاصة — إن لدينا فى الآخرة ما يضاعف ثعمهم فى الدنيا، وهو النكال والجحيم والطعام الذى يعضون به والعذاب الأليم .

وعن الحسن أنه أمسى صائما فأتى بطعام فعرضت له هذه الآية فقال : أرفعه ، ووضع عنده الليلة الثانية فعرضت له فقال : أرفعه ، وكذلك الليلة الثالثة ، فأخبر ثابت البناتى ويزيد الضبى ويحيى البكاء ، فجاءوا فلم يزالوا به حتى شرب شربة من سويق .

وبعد أن وصف العذاب ذكر زمانه فقال :

(يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا) أى ذلك العذاب فى يوم تضطرب فيه الأرض ، وتزلزل الجبال وتتفرق أجزاءها ، وتصير كالعهن المنفوش ، وكالكثيب المهيل بعد أن كانت حجارة صماء ، ثم ينسفها ربى نسفا ، فلا يبقى منها شىء .

وبعد أن خوف المكذبين أولى النعمة بأهوال القيامة خوّفهم بأهوال الدنيا وملاقته الأمم المكذبة من قبلهم فقال :

(إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا ، فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذنا وبيلا) أى إنا أرسلنا إليكم رسولا يشهد عليكم بإجابة من أجاب منكم دعوتى ، وامتناع من امتنع من الإجابة يوم تلقوننى فى القيامة ، كما أرسلنا إلى فرعون رسولا يدعوه إلى الحق ، فعصى فرعون الرسول الذى أرسلناه إليه فأخذناه أخذنا شديدا فأهلكناه ومن معه بالغرق ، فاحذروا أن تكذبوا هذا الرسول ، فيصيبكم مثل ما أصابه .

وقصارى ذلك — كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصاه فأخذناه أخذنا وبيلا ، أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم ، فاحذروا أن تعصوه فيصيبكم مثل ما أصابه .

وبعد أن هددهم بعذاب الدنيا أعاد الكثرة بتخويفهم بعذاب الآخرة فقال :

(فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا ، السماء منفطر به كأن وعده

مفعولاً) أى كيف يحصل لكم أمان من يوم يحصل فيه هذا الفرع العظيم الذى تشيب من هوله الولدان ، وتنشقق السماء وتنفطر بسبب شدائده وأهواله إن كفرتم ، والعرب تضرب المثل فى الشدة فتقول : هذا يوم تشيب من هوله الولدان ، وهذا يوم يشيب نواصى الأطفال ، ذلك أن الهموم والأحزان إذا تفاقمت على الإنسان أسرع فيه الشيب كما قال المتنبي :

والهمُّ يَحْتَرِمُ الجَسِيمَ نَحَافَةً وَيُشِيبُ نَاصِيَةَ الصَّبِيِّ وَيُهِرِمُ

فجعلوا الشيب كناية عن الشدة والحنة ، فاحذروا هذا اليوم فإنه كأن لا محالة كما وعد الله .

والخلاصة — كأنه قيل : هبوا أنكم لا تتواخذون فى الدنيا إخذة فرعون وأضرابه ، فكيف تقون أنفسكم أهوال القيامة وما أعد لكم من الأنكال إن دتم على ما أتم عليه من الكفر .

إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (١٩) إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ مُّبَلَىٰ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ، عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ ، وَأَخْرَمُونَ يَصْرَبُونَ فِي الْأَرْضِ يُبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ، وَأَخْرَمُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ، وَمَا تَقَدَّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ، وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠) .

شرح المفردات

تذكرة : أى موعظة ، سبيلا : أى طريقا توصله إلى الجنة ، أدنى . أى أقل ،
والله يعدّر الليل والنهار . أى يعلم مقادير ساعاتهما ، أن لن تحصوه . أى لا يمكنكم
الإحصاء وضبط الساعات ، فتأب عليكم . أى بالترخيص فى ذلك القيام المقدر ورفع
التبعة عنكم ، فاقروا ما تيسر من القرآن . أى فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل ،
يضربون فى الأرض . أى يسافرون للتجارة ، وأقرضوا الله . أى أنفقوا
فى سبل الخيرات .

المعنى الجملى

بعد أن بدأ السورة بشرح أحوال السعداء وبيّن معاملتهم للعولى ثم معاملتهم
للخلق ، ثم هدد الأشقياء بأنواع من العذاب فى الآخرة ، ثم توعدهم بمذاب الدنيا ،
وبعدئذ وصف شدة يوم القيامة — ختم السورة بتذكيرات مشتملة على أنواع الهداية
والإرشاد ؛ فمن شاء أن يسلك سبيل ربه بالطاعة والبعد عن العصية فليفعل ، ثم
أخبره بما يقوم به هو والؤمنون للعبادة من ساعات الليل : ثلثيه أو نصفه أو ثلثه ،
ثم خفف ذلك عنهم للأعداء التى تحيط بهم من مرض أو سفر للتجارة ونحوها أو جهاد
للعدوّ ، فليصلوا قدر ما يستطيعون ، وليؤتوا زكاة أموالهم ، وليستغفروا الله فى جميع
أحوالهم ، فهو الغفور الرحيم .

الإيضاح

(إن هذه تذكرة) أى إن ما تقدم من الآيات التى ذكر فيها يوم القيامة
وأحوالها ، وما هو فاعل فيها بأهل الكفر — عبرة لمن اعتبر وادّكر .
(فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) أى فمن شاء اتعظ بها ، واتخذ سبيلا إلى ربه

فَأَمَّنْ بِهِ وَعَمِلَ بِطَاعَتِهِ وَأَخْبِتَ إِلَيْهِ ، وَذَلِكَ هُوَ النَّهْجُ الْقَوِيمُ ، وَالطَّرِيقُ الْمَوْصِلُ إِلَى مَرْضَاتِهِ .

ثم رخص لأُمَّته في ترك قيام الليل كله المشقة التي تلحقهم إذا هم فعلوا ذلك . فقال :

(إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلَاثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلَاثَةَ سَاعَاتٍ مِنْ اللَّيْلِ مِنْ دُونِ ذَلِكَ بِمَا عَدَّ السُّعْيُ ، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلَئِنْ تَسْتَضِيْعُوا ضَبْطَ الْأَوْقَاتِ وَلَا إِحْصَاءَ السَّاعَاتِ ، وَتَقُومُوا النِّصْفَ ، وَتَقُومُوا الثُّلُثَ أَنْتُمْ وَطَائِفَةٌ مِنْ صَحْبِكُمُ الْمُؤْمِنِينَ حِينَ فَرَضَ عَلَيْكُمْ قِيَامَ اللَّيْلِ .

(والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتأب عليكم) أى ولا يعلم مقادير الليل والنهار إلا الله ، وأما أنتم فلن تستطيعوا ضبط الأوقات ولا إحصاء الساعات ، فتأب عليكم بالترخيص في ترك القيام المقدر ، وعفا عنكم ورفع هذه المشقة .

قال مقاتل وغيره : لما نزلت « قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا » شق ذلك عليهم ، وكان الرجل لا يدرى متى نصف الليل من ثلثه ، فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطئ ، فانتفخت أقدامهم ، وامتنعت ألوانهم ، فرحمهم الله وخفف عنهم فقال تعالى « عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَأْتِبَ عَلَيْكُمْ » .

والخلاصة — الله يعلم أنكم لن تحصوا ساعات الليل إحصاء تاماً : فإذا زدتم على المفروض ثقل ذلك عليكم وكلفتم ما ليس بفرض ، وإن نقصتم شق هذا عليكم ، فتأب عليكم ورجع بكم من تثقيل إلى تخفيف ، ومن عسر إلى يسر ، وطلب إليكم أن تصلوا ما تيسر بالليل كما أشار إلى ذلك بقوله :

(فَأَقْرءُوا مَا تيسر من القرآن) أى فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل . قال الحسن . هو ما يقرأ في صلاة المغرب والعشاء . وقال السدي . ما تيسر منه هو مائة آية . وفي بعض الآثار . من قرأ مائة آية في ليلة لم يحاجه القرآن ، وعن قيس بن حازم قال :

«صليت خلف ابن عباس فقرأ في أول ركعة بالحمد لله رب العالمين وأول آية من البقرة ثم ركع ، فلما انصرفنا أقبل علينا فقال : إن الله يقول : « فَاَقْرَبُوا مَا نَسَسَ مِنْهُ » أخرجه الدارقطني والبيهقي في سننه .

ثم ذكر أعدارا أخرى تسوّغ هذا التخفيف فقال :

(علم أن سيكون منكم مرضى ، وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون في سبيل الله) أى علم سبحانه أنه سيكون من هذه الأمة ذوو أعدار لا يستطيعون معها القيام بالليل كمرض وضرب في الأرض ابتغاء الرزق من فضل الله ، وغزو في سبيل الله ؛ فهؤلاء إذا لم يناموا في الليل تتوالى عليهم أسباب المشقة ويظهر عليهم آثار الجهد ، وفي هذا إيماء إلى أنه لا فرق بين الجهاد في قتال العدو والجهاد في التجارة لنفع المسلمين .

قال ابن مسعود : أيما رجل جلب شيئا إلى مدينة من مدائن الإسلام صابراً محتسباً ، فباعه بسعر يومه ، كان عند الله من الشهداء ، ثم قرأ قوله تعالى : « وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ، وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن عمر رضى الله عنه قال : ما من حال يأتيني عليه الموت بعد الجهاد في سبيل الله أحب إلى من أن يأتيني ، وأنا بين شعبي جبل ألتبس من فضل الله ، وتلا : « وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ » .

ولما ذكر سبحانه ثلاثة أسباب مقتضية للترخيص ورفع وجوب القيام عن هذه الأمة — ذكر ما يفعلونه بعد هذا الترخيص فقال :

(فاقربوا ما نيسر منه) أى من القرآن ، والمراد صلوا كما تقدم .

(وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأفرضوا الله قرضا حسنا) أى وصلوا الصلاة

المفروضة وقوموها فلا تكون قلوبكم غافلة ، ولا أفعالكم خارجة عما رسمه الدين ،
 وآتوا الزكاة الواجبة عليكم ، وأقرضوا الله قرضاً حسناً بالإِنفاق في سبيل الخير للأفراد
 والجماعات مما هو نافع لها في رقيتها المادي والاجتماعي ، وسيبقى لكم جزاء ذلك
 عند ربكم .

ونحو الآية قوله . « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ
 أَضْعَافًا كَثِيرَةً » .

ثم حثب في الصدقة وفعل الخيرات فقال .

(وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً) أى
 وما تقدموا لأنفسكم في دار الدنيا من صدقة أو نفقة تنفقونها في سبيل الله ، أو فعل
 طاعة من صلاة أو صيام أو حج أو غير ذلك ، تجدوا ثوابه عند الله يوم القيامة خيراً
 مما أبقيتم في دار الدنيا ، وأعظم منه عائدة لكم .

(واستغفروا الله) أى وسلوا الله غفران ذنوبكم يصفح لكم عنها ويسترها يوم
 الحساب والجزاء .

(إن الله غفور رحيم) أى إن الله ستار على أهل الذنوب والتقصير ، ذورحة
 فلا يعاقبهم عليها بعد توبتهم منها .

نسأل الله تعالى أن يغفر لنا ما فرط منا من الزلات ، بحرمة سيد خلقته ، وسند
 أهل صفوته . وصل ربنا على محمد وشيعته .

ما جاء في هذه السورة من أوامر وأحكام

أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأشياء :

- (١) أن يقوم من الليل ثلثه أو نصفه أو ثلثيه .
- (٢) أن يقرأ القرآن بتؤدة وتمهل .
- (٣) أن يذكر ربه ليلاً ونهاراً بالتحميد والتسبيح والصلاة ، وأن يجرد نفسه عما سواه .
- (٤) أن يتخذة وكيلاً يكل إليه أموره متى فعل ما يجب عليه نحوها .
- (٥) أن يصبر على ما يقولون فيه : من أنه ساحر أو شاعر ، وفي ربه من أن له صاحبة وولداً ، وأن يهجرهم هجراً جميلاً بمجانبتهم ومداراتهم ، وأن يكل أمرهم إلى ربهم فهو الذي يكافئهم ، وسيرى عاقبة أمرهم وأمره .
- (٦) أن يخفف القيام للصلاة بالليل بعد أن شق ذلك عليهم لأعذار كثيرة والاكتفاء بما تيسر من صلاة الليل ، ففي الصلاة المفروضة غنية للأمة مع إتياء الزكاة ودوام الاستغفار .

سورة المدثر

هي مكية ، نزلت بعد سورة الزمل ، وعدد آياتها ست وخمسون .
وصلتها بما قبلها :

(١) أنها متواخية مع السورة قبلها في الافتتاح ببدء النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) أن صدر كليهما نازل في قصة واحدة .

(٣) أن السابقة بدئت بالأمر بقيام الليل ، وهو تكميل لنفسه صلى الله عليه وسلم

بعبادة خاصة ، وهذه بدئت بالإندار لغيره ، وهو تكميل لسواه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤)

وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَمُنَّ تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) فَإِذَا تَقَرَّ

فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمٌ مَّمْدُودٌ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ

يَسِيرٍ (١٠) .

شرح المفردات

المدثر: أصله المتدثر، وهو الذي يتدثر بثيابه ، أى يتغطى بها لينام أو ليستدفئ ،
والدثار: اسم لما يتدثر به ، أنذر: أى حذر قومك عذاب الله إن لم يؤمنوا ، كبر:
أى عظم ، فطهر: أى طهر نفسك مما تدم به من الأفعال ، وهدبها عما يستهجن من
الأحوال ، والرجز: العذاب كما قال: « لَنْ كَشَفْتَعَنَّ الرَّجْزَ » أى اهج المآثم
المؤدية إلى العذاب ، ولا تمنن تستكثر: أى ولا تمنن بملك على ربك تطلب

كثرتة ، نقر : أى نفخ ، الناقور : أى الصور ، غسير . أى شديد ، غير يسير .
أى غير سهل .

المعنى الجملى

روى جابر بن عبد الله أنه عليه الصلاة والسلام قال : « كنت على جبل حراء فنوديت
يا محمد إنك رسول الله ، فنظرت عن يمينى وعن يسارى ، فلم أر شيئاً فنظرت فوقى فرأيت
الملك قاعداً على عرش . بين السماء والأرض ، نخفت ورجعت إلى خديجة فقلت :
دثرونى دثرونى ، وصبوا على ماء بارداً ، فنزلت (يأيها المدثر قم فأنذر - إلى قوله
والرجز فاجهر) « وقد أمر الله رسوله بالإندار وتطهير نفسه من دنىء الأخلاق والمآثم
والصبر على أذى المشركين ، فإنهم سيلقون جزاءهم يوم ينفخ فى الصور ، وهو يوم
شديد الأهوال على الكافرين ليس بالهين عليهم .

الإيضاح

(يأيها المدثر . قم فأنذر) أى أيها الذى تدر بثيابه رعباً وفرقاً من رؤية الملك
عند نزول الوحي أول مرة : شمر عن ساعد الجد وأنذر أهل مكة عذاب يوم عظيم ،
وادعهم إلى معرفة الحق لينجوا من هول ذلك اليوم الذى تذهل فيه كل مرضعة
عما أرضعت .

والداعى إلى ربه الكبير المتعالى لا يتم له ذلك إلا إذا كان متخلقا بجميل الخلال
وحيد الصفات ، ومن ثم قال :

(وربك فكبر) أى عظم ربك ومالك أمورك بعبادته والرغبة إليه دون
غيره من الآلهة والأنداد .

ونحو الآية قوله : « أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فأتقون » .

(وثيابك فطهر) سئل ابن عباس عن ذلك فقال : لاتلبسها على مقصية

ولا عن عُذْرَةَ ، ثم قال : أما سمعت قول غيلان بن مسعدة التقي :

فإني بحمد الله لانيوبَ فاجرٍ لبستُ ولا من عُذْرَةَ أتقنعُ

والعرب تقول عن الرجل إذا نكث العهد ولم يف به : إنه لدنس الثياب ، وإذا

وفي ولم يندُر ، إنه لطاهر الثوب ، قال السموءل بن عادي اليهودي .

إذا المرء لم يدنس من اللؤمِ عرضه فكل رداء يرتديه جميلٌ

ولا تزال هذه المعاني مستعملة في ديار مصر وغيرها فيقولون : فلان طاهر الذيل ،

يريدون أنه لا يلامس أجنبية .

ويرى جمع من الأئمة أن المراد بطهارة الثياب : غسلها بالماء إن كانت نجسة ،

وروى هذا عن كثير من الصحابة والتابعين ، وإليه ذهب الشافعي فأوجب غسل

النجاسة من ثياب المصلي .

وقد استبان للمشتغلين بأصول التشريع وعلماء الاجتماع من الأوربيين أن

أكثر الناس قَدْرًا في أجسامهم وثيابهم أكثرهم ذنوبًا ، وأطهرهم أبدانًا وثيابًا أبعدهم

من الذنوب ، ومن ثم أمروا المسجونين بكثرة الاستحمام ونظافة الثياب ، فحسنت

أخلاقهم ، وخرجوا من السجن ، وهم أقرب إلى الأخلاق الفاضلة منهم إلى الرذائل .

وقال الأستاذ (بننام) في كتابه أصول الشرائع : إن كثرة الطهارة في دين

الإسلام مما تدعو معتنيه إلى رقى الأخلاق والفضيلة إذا قاموا باتباع أوامره

خير قيام .

ومن هذا تعلم السرفي قوله : (وثيابك فطهر) .

(والرجز فاجر) أي اجر المماص والآنام الموصلة إلى العذاب في الدنيا والآخرة

فإن النفس متى طهرت منها كانت مستعدة للإفاضة على غيرها ، وأقيبات بإصغاء

رشوق إلى سماع ما يقول الداعي .

وقد جرت العادة أن الداعي تصادفه عقبتان :

(١) الغرور والنخر والعظمة ، فيقول أنا مُسَدِّدٌ لِلنَّعْمِ إِلَيْكُمْ ، ومفويض للخير عليكم .

(٢) الأعداء ، وهؤلاء يؤذونه ويتر بصون به الدوائر ، ويتبعونه في كل مكان

ويتألبون عليه ليل نهار ، وذلك من أكبر العوامل المثبطة للدعاة التي تجعلهم

يكرّون راجعين ويقولون : ما لنا ولقوم لا يسمعون قولنا ، ولنبتعد عن الناس ، فإنهم

لا يعرفون قدر النعم ، ولا يشكرون المنعمين ، ومن ثم قال تعالى :

(ولا تمنن تستكثر) أى ولا تمنن على أصحابك بما علمتهم وبلغتهم من الوحي

مستكثرًا ذلك عليهم . وقد يكون المعنى : لاتضعف ، من قولهم : حبل منين أى

ضعيف ، ومنه السير : أى أضعفه ، فالمراد لاتضعف أن تستكثر من الطاعات التي

أمرت بها قبل هذه الآية .

وقد يكون المراد كما قال ابن كيسان : لاتستكثر عملا فتراه من نفسك ، إنما

عملك مِنَّةٌ من الله عليك ، إذ جعل لك سبيلا إلى عبادته .

(ولربك فاصبر) على طاعته وعبادته ، وقال مقاتل ومجاهد : اصبر على

الأذى والتكذيب .

والخلاصة — لاتجزع من أذى من خالفك .

ولما أتمَّ إرشاد رسوله أرفده بوعيد الأشقياء فقال :

(فإذا نفر في الناقر . فذلك يومئذ يوم عسير) أى اصبر على أذاهم ؛ فإن بين

أيديهم يوما عسيرا يذوقون فيه عاقبة كفرهم وأذاهم حين ينفخ في الصور ، ويومئذ

تقال الجزاء الحسن والنعيم المقيم .

ثم أكد هذا بقوله :

(على الكافرين غير يسير) أى يومهم عسير لا يسر فيه ولا فيما بعده ، على

خلاف ما جرت به العادة من أن كل عسر بعده يسر ، وعسره عليهم أنهم يناقشون

الحساب ، وَيُعْطُونَ كِتَابَهُمْ بِشَأْنِهِمْ وَتَسْوَدُّ وُجُوهُهُمْ ، وَتَتَكَلَّمُ جِوَارِحُهُمْ ،
فِيَقْتَضِحُونَ عَلَى رِءُوسِ الْأَشْمَادِ .

وأما المؤمنون فإنه عليهم يسير لا يناقشون فيه حسابا ، ويمشون ببيض الوجوه .

أخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس قال : لما نزلت « فإذا نقر في الناقور » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحتى جهنمه ينتظر متى يؤمر فينفخ ؟ قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فما تأمرنا يارسول الله ؟ قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » .

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ
شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ
كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأَرْهُقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨)
فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ
وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ (٢٤)
إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأَصْلِيهِ سَقَرًا (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧)
لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَاحِةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) .

شرح المفردات

ذرنى ومن خلقت وحيدا : أى دعنى وإياه ، فإنى أ كفيك ، ممدودا : أى كثيرا ، شهودا : أى حضورا معه بمكة يتمتع بمشاهدتهم ، ومهدت له تمهيدا : أى بسطت له الرياسة والجاه العريض ، سأرهقه ، أى سأكفه ، صعودا : أى عقبة

شاقة لا تطاق ، فقتل كيف قدر : أى لعنه الله كيف وصل بقوة خياله وسرعة خاطره إلى رميه الغرض الذى كانت تنتحيه قريش ، عيس : أى قطب ما بين عينيه ، بسر : أى كلح وجهه ؛ كما قال توبة بن الحُمَيْر .

وقد رابى منها صدودُ رأيتُهُ وإعراضها عن حاجتى وبُسورها
لواحة ، من لَوَّحتَه الشمس : إذا سودت ظاهره وأطرافه ، قال :
تقولُ ما لاحتك يا مسافرُ يابنةَ عمى لاحتى المواجهر
والبشر : واحدها بشرة ، وهى ظاهر الجلد :

المعنى الجملى

روى « أن النبي صلى الله عليه وسلم قام في المسجد يصلى والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته ، وهو يقرأ : « حَسَمَ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ، ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْنَا الْمَصِيرُ » فلما فطن النبي صلى الله عليه وسلم إلى استماعه أعاد القراءة ، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بنى مخزوم فقال : والله لقد سمعت من محمد آناً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، والله إن له لخلوةً ، وإن عليه لطلاوةً ، وإن أعلاه لمشمير ، وإن أسفله لمُعَدِّق ، وإنه يعلم وما يُعلمى عليه ، ثم انصرف إلى منزله ، فقالت قريش : صَبَأً والله الوليد ، ولتصيون قريش كلهم ، فقال أبو جهل : أنا أ كفيكوه ، فانطلق حتى جلس إلى جنب الوليد حزينا ، فقال الوليد : ما لى أراك حزينا يا بن أخى ؟ فقال : وما يمنعنى أن أحزن ، وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك على كبر سنك ، ويزعمون أنك زينت كلام محمد ، وأنتك تدخل على ابن أبى كبشة وابن أبى قحافة لتتال من فضل طعامهم ؟ فغضب الوليد وقال : ألم تعلم قريش أنى من أكثرهم مالاً وولداً ؟ وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام حتى يكون

لهم فضل طعام؟ ثم أتى مجلس قومه مع أبي جهل فقال لهم: تزعمون أن محمداً مجنون
 فهل رأيتوه يخفق قط؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كاهن، فهل رأيتوه قط
 تكهن؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه شاعر، فهل رأيتوه ينطق بشعر قط؟
 قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كذاب، فهل جربت عليه شيئاً من الكذب؟
 قالوا: اللهم لا (وكان رسول الله يسمى الأمين قبل النبوة لصدقه) ثم قالوا:
 (فأهو؟ قال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتوه يفرق بين الرجل وأهله وولده
 ومواليه، فهو ساحر وما يقوله سحر يآثره عن مسيئله وأهل بابل، فارتج النادى فرحاً،
 وتفرقوا معجبين بقوله، متعجبين منه؛ فنزلت هذه الآيات).

وقد كان الوليد يسمى الوحيد، لأنه وحيد في قومه، فمأله كثير فيه الزرع
 والضرع والتجارة، وكان له بين مكة والطائف إبل وخيل ونعم، وعبيد وجوار،
 وله عشرة أبناء يشهدون الحافل والجامع، أسلم منهم ثلاثة: خالد وهشام وعمارة،
 وقد بسط الله له الرزق وطال عمره مع الجاه العريض والرياسة في قومه، وكان يسمى
 زيجانة قریش.

الإيضاح

(ذري ومن خلقت وحيداً) أي خلّ بيني وبين من أخرجته من بطن أمه
 وحيداً لا مال له ولا ولد، ثم بسطت له الرزق والجاه العريض، فكفر بأنعم
 الله عليه.

وقال مقاتل: خلّ بيني وبينه فأنا أتفرد بهديكته.
 وفي هذا وعيد شديد على تمرده وعظيم عناده واستكباره لما أوتيه من بسطة المال
 والجاه، وكان يقول: أنا الوحيد بن الوحيد، ليس لي في العرب نظير، ولا لأبي
 نظير، وقد تهكم الله به وبلّغته، وصرفه عن الغرض الذي كانوا يقصدونه من مدحه
 والثناء عليه إلى آذنه وعييه، فجعله وحيداً في الشر والخبث.

(وجعلت له مالا ممدودا) أى أعطيته مالا كثيرا ، فكان له زرع وضرع وتجارة كثيرة ، قال مقاتل : كان له بستان لا ينقطع ثمره شتاء ولا صيفا .

وقال ابن عباس : كان له مال ممدود بين مكة والطائف من الإبل والخيل والغنم والبساتين الكثيرة التى لا تنقطع ثمارها صيفا ولا شتاء .

(وبنين شهودا) أى وبنين حضورا معه بمكة لا يفارقونها ؛ لكسب عيش ، ولا ابتغاء رزق ، إذ كانوا فى غنى عن الضرب فى الأرض ، بما لهم من واسع الثراء ، فكان مستأنسا بهم ، طيب القلب بشهودهم .

(ومهدت له تمهيدا) التمهد عند العرب : التوطئة ، ومنه مهد الصبي ، والمراد وسعت له الأرزاق ، وبسطت له الجاه ، فكان من الحق عليه أن يشكر الله على ما أنعم عليه ، ولكنه كان لربه كئودا ، فأعرض عن الداعى واستكبر ، وقابل النعمة بالكفران ، والجلود بالجحود والعصيان .

ثم عجب من حاله وطلبه الزيادة على ما هو فيه فقال :

(ثم يطمع أن أزيد) أى ثم هو بعد ذلك يرجو أن يزيد ماله وولده .

وفى هذا استنكار لشديد حرصه وتكالبه على جمع حطام الدنيا كما هو شأن الإنسان ، فقد جاء فى الحديث « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنى لها أثنا » وجاء فى الخبر « منهومان لا يشبعان : طالب علم وطالب مال » .

وروى عن الحسن أنه كان يقول : إن كان محمد صادقا فما خلقت الجنة إلا لى . ثم أياسه تعالى وقطع رجاءه فقال .

(كلا) أى لا أفضل ولا أزيد . قال مقاتل . ما زال الوليد بعد نزول الآية

فى نقص من ماله وولده حتى هلك .

ثم علل هذا بقوله :

(إنه كان لآياتنا عنيدا) أى إنه كان معاندا لآيات المنعم ، وهى آيات القرآن

التي نزل بها الوحي على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم قال فيها ما قال ، ومعاندة الحق جديرة بزوال النعم .
وفي الآية إيماء إلى أن كفره كفر عناد ، فهو يعرف الحق بقلبه ، وينكره بلسانه ، وهذا أقبح أنواع الكفر .

ثم بين ما يفعله به يوم القيامة فقال :

(سأرهقه صعُوداً) أى سأكلفه عقبة شاقة الصعود ، والمراد أنه سيلقى العذاب الشديد الذى لا يطاق ، وقد جعل الله ما يسوق إليه من المصائب وأنواع المشاق شبيهاً بمن يُكَلِّف صعُود الجبال الوعرة الشاقة .
قال قتادة : سيكلف عذاباً لراحة فيه .

ثم حكى كيفية عناده فقال :

(إنه فكرٌ وقدرٌ) أى إنه فكر وزورٌ فى نفسه كلاماً فى الطعن فى القرآن ، وما يختلق فيه من المقال ، وقدره تقديراً ، أصاب به ما فى نفوس قريش ، وما به وافق غرضهم .

والخلاصة — إنه فكر وتروى ماذا يقول فيه ، وبماذا يصفه به ، حين سئل

عن ذلك ؟

ثم عجب من تقديره وإصابته الخنز فقال :

(فقتل كيف قدر) هذا أسلوب يراد به التعجيب والثناء على المحدث عنه .
يقول العرب : فلان قاتله الله ما أشجمه ! وأخزاه الله ما أشعره يريدون أنه قد بلغ المبلغ الذى هو حقيق بأن يُحسد ويدعو عليه خاسده بذلك ، وعلى هذا النحو جاء قوله تعالى : « قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْ يُوَفَّقُوا » .

وقصارى ذلك — إن هذا تعجيب من قوة خاطره ، وإصابته الغرض الذى

كانت ترمى إليه قريش من الطعن الشديد فى القرآن ، فقوله جاء وفق ما كانوا يريدون ، وطبق ما كانوا يتمنون من القدح فيه ، وفيمن جاء به .

ثم كرر هذا الدعاء للتأكيد والمبالغة فقال :

(ثم قتل كيف قدر) أى لعن وعذب على أى حال قدر ما قدر من الكلام كما يقال فى الكلام : لأضربنه كيف صنع : أى على أى حال كانت منه .

(ثم نظر) أى ثم نظر فى أمر القرآن مرة بعد أخرى ، لعله يحاول بمخاطره ما يحبون ، ويصل إلى ما يرجون .

(ثم عبس) أى ثم قطب وجهه حين ضاقت به الحيل ولم يدر ما يقول .

ثم أكد ما قبله فقال :

(وبسر) أى كلىح واسود وجهه ، قال سعد بن عبادة : لما أسلمت راعقتى أوى ، فكانت تلقانى مرة بالبشر ، ومرة بالبشر .

وفى هذا إيماء إلى أنه كان مصدقاً بقلبه صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان ينكره عنادا ، فإنه لو كان يعتقد صدق ما يقول لفرح باستنباط ما استنبط ، وإدراك ما أدرك ، وما ظهرت العبوسة على وجهه .

(ثم أدير واستكبر) أى ثم صرف وجهه عن الحق ورجع القهقري مستكبرا عن الانقياد له والإقرار به .

ثم ذكر ما استنبطه من الترهات والأباطيل .

(فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر) أى فقال ما هذا القرآن إلا سحر ينقله محمد عن غيره ممن كان قبله من السجرة كسيلة وأهل بابل ويحكى عنهم .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(إن هذا إلا قول البشر) أى إنه ملتقط من كلام غيره ، وليس من كلام الله كما يدعى ، ولو صح ما قال لأمكن غيره أن يقول مثله أو يعارضه بأحسن منه ، ففى العرب ذوو فصاحة وذراية لسان ، وفيهم الخطباء والمقاويل الذين لا يجارون ولا يبارون ، ولم يعلم أن أحدا من أهل الزكاة والمعرفة سوّلت له نفسه أن يعارضه ، بل التجشوا إلى السيف والسنان ، دون المعارضة بالحجة . والبرهان ، وقد رووا فى هذا

الباب مضحكاتٍ أغلبها لا يصح ، لأنهم وهم المقاولين ذوو اللسن وقوة العارضة لا ينبغي أن ينسب إلى أحدهم مثل هذا الهذَر ؛ كقول من نسب إليه أنه عارض سورة الفيل فقال : الفيل ما الفيل ، وما أدراك ما الفيل ، له ذنب طويل ، ومِسْفَرٌ وتيل الخ .

ثم ذكر ما يلقاه من الجزاء على سوء صنيعه ، وفطيع عمله فقال :

(سأصليه سقر) أى سأدخله جهنم وأغمره فيها من جميع جهاته .

ثم بالغ في وصف النار وتعظيم شأنها فقال :

(وما أدراك ما سقر؟) تقول العرب : ما أدراك ما كذا : إذا أرادوا المبالغة والتهويل

في الأمر . أى وأى شيء أعلمك ما سقر؟ لأنها قد بلغت في الوصف حدا لا يمكن

معرفة ، ولا يتوصل إلى إدراك حقيقته .

ثم بين وصفها بقوله .

(لا تبق ولا تذر) أى لا تبق لهم لحما ولا تذر عظما ، فإذا أعيد أهلها

خلقا جديدا فلا تذرهم ، بل تعيد إحراقهم كرة أخرى ، وهكذا دَوَّالِيكَ كما جاء

في الآية الأخرى . «كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَأْنَاهُمْ حُلُودًا غَيْرَ هَالِكِيْدُوقُوا الْعَذَابَ» .

(لِوَاحَةِ الْبَشَرِ) أى تلتفح الجلد لقمحة تدعه أشد سوادا من الليل ، قال ابن

عباس : تلوح الجلد فتحرقه وتغير لونه .

(عليها تسعة عشر) أى على النار تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها .

عن البراء «أن رهطا من اليهود سألوا بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن

خزنة جهنم ، فقال : الله ورسوله أعلم ، فجاء جبريل فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم

فنزل عليه ساعتهئذ عليها تسعة عشر» رواه البيهقي وابن أبي حاتم وابن مردويه .

وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمُ إِلَّا فِتْنَةً

لِلَّذِينَ كَفَرُوا ، لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ، وَيَزِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا

إِيمَانًا ، وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَلَيَقُولَ الَّذِينَ
 فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ، كَذَلِكَ
 يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ،
 وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ (٣١) كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ (٣٣)
 وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكِبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٣٦) لَنْ
 شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧)

شرح المفردات

فتنة . أى سبب ضلال ، أوتوا الكتاب . هم اليهود والنصارى ، مرض . أى
 ففاق ، مثلاً : أى حديثاً ، ومنه قوله تعالى . « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ » أى
 حديثها والخبر عنها ، جنود ربك : أى هم خلقه من الملائكة وغيرهم ، ذكرى : أى
 تذكرة وموعظة للناس ، كلاً : أى حقاً ، أدبر : أى ولى ، أسفر : أى أضاء ،
 الكبر : أى البلىا والدواهى ، واحدها كبرى ، أن يتقدم : أى إلى الخير ، يتأخر :
 أى يتخلف عنه .

المعنى الجملى

روى ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس « أن أبا جهل لما سمع قوله تعالى :
 « عليها تسعة عشر » قال لقريش : تكلمتكم أمهاتكم ، أسمع أن ابن أبى كبشة ،
 (يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم) : يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر ، وأنتم الدُّم
 « الشجعان » أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم ، فقال له أبو الأشد

ابن كَلَدَةَ الْجُمَحَى - وكان شديد البطش - أي هولتكم التسعة عشر، أنا أدفع بمنكبي
 الأيمن عشرة، وبمنكبي الأيسر التسعة، ثم تمررون إلى الجنة - يقول ذلك مستهزئاً «
 وفي رواية أن الحرث بن كَلَدَةَ قال : أنا أ كفيكم سبعة عشر، وا كفوني أتم اثنين،
 فنزل قوله : « وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة » أي لم يجعلهم رجالاً فيتعاطون
 مغالبتهم .

الإيضاح

(وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) أي وما جعلنا المدبرين لأمر النار
 القاعين بعباد من فيها إلا ملائكة ، فمن يطبق الملائكة ومن يغلبهم ؟
 وهؤلاء : هم النقباء والمدبرون لأمرها .

وإنما كانوا ملائكة لأنهم أقوى الخلق وأشدهم بأساً وأقومهم بحق الله والغضب
 له سبحانه ، وليكونوا من غير جنس المدبرين حتى لا يرقوا لهم ويرحومهم .
 ثم ذكر الحكمة في اختيار هذا العدد القليل فقال :

(وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا) أي وما جعلنا عددهم هذا العدد
 إلا حنة وضلالة للكافرين ، حتى قالوا ما قالوا ليتضاعف عذابهم ، ويكثر غضب
 الله عليهم .

وفتنهم به أنهم استقلوه واستهزؤوا به واستبعدوه وقالوا : كيف يتولى هذا العدد
 القليل تعذيب الثقلين .

(ليستيقن الذين أتوا الكتاب) أي إنه سبحانه جعل عدة خزنة جهنم هذه
 العدة ، ليحصل اليقين لليهود والنصارى بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم لموافقة ما
 في القرآن لتكذيبهم ، قاله ابن عباس وقتادة ومجاهد وغيرهم .

(ويزداد الذين آمنوا إيماناً) أى ويزداد إيمان المؤمنين حين يرون تسليم أهل الكتاب وتصديقهم أن العدد كما قال :

ثم أكد الاستيفان وزيادة الإيمان فقال :

(ولا يرتاب الذين أتوا الكتاب والمؤمنون) أى ولا يشك أهل التوراة والإنجيل والمؤمنون بالله من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فى حقيقة ذلك العدد .
ولا ارتياب فى الحقيقة من المؤمنين ، ولكنه تعريض بغيرهم ممن فى قلبه شك من المنافقين .

(وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا) أى وليقول الذين فى قلوبهم شك فى صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، والقاطعون بكذبه : ما الذى أراد الله بهذا العدد القليل المستغرب استغراب المثل ؟

ثم بين أن الاختلاف فى الدين سنة من سنن الله تعالى فقال :

(كذلك يضل الله من يشاء ويهذى من يشاء) أى كما أضل الله هؤلاء المنافقين والمشركين القائلين عن عدة خزنة جهنم : أى شئ أراد الله بهذا الخبر حتى يخوفنا بعدتهم ؟ - يضل الله من خلقه من يشاء ، فيخذله عن إصابة الحق ، ويهذى من يشاء منهم ، فيوقفه لإصابة الصواب .

والخلاصة - إن مثل هذا الإضلال يضل من يشاء إضلاله لسوء استعداده ، وتدسيته نفسه ، وتوجيهها إلى سبب الأعمال ، واجتراح السيئات حين مشاهدة الآيات الناطقة بالهدى - ويهذى من يشاء لتوجيه اختياره إلى الحسن من الأعمال ، وتركيبته نفسه كما لاح له سبيل الهدى .

(وما يعلم جنود ربك إلا هو) أى وما يعلم عدد خلقه ، ومقدار جموعه التى من جملتها الملائكة على ما هم عليه إلا الله عز وجل .

وهذا ردٌّ على استهزائهم بكون الخزنة تسعة عشر ، جهلاً منهم وجه الحكمة في ذلك .

قال مقاتل : هو جواب لقول أبي جهل : أما لرب محمد أعوان إلا تسعة عشر .

وخلاصة ذلك — إن خزنة النار وإن كانوا تسعة عشر فلمهم من الأعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه .

(وما هي إلا ذكري للبشر) أي وما سقر وصفتها إلا تذكرة للبشر .

(كلا) أي كلا لاسبيل لكم إلى إنكارها لتظاهر الأدلة عليها .

(والقمر . والليل إذا أدبر . والصبح إذا أسفر . إنها لإحدى الكبر) نذيراً

للبشر أي أقسم بالقمر الوضاح ، والليل إذا ولي وذهب ، والصبح إذا أشرق —

إن جهنم لإحدى البليات الكبار والدواهي العظام للإنذار بالبشر .

ثم بين أصحاب النذارة فقال :

(لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر) أي لمن شاء أن يقبل النذارة أو يتولى

عنها ويردّها .

ونحو الآية قوله : « **وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ** » ولقد علمنا المستأخرين .

وخلاصة ما سلف — هاتم أولاد قد علمتم سقر وعذابها وملائكتها ، فمن تقدم

إلى الخير أطلقناه ، ومن تأخر عنه سلكتناه فيها .

قال ابن عباس : هذا تهديد وإعلام بأن من تقدم إلى الطاعة والإيمان بمحمد

صلى الله عليه وسلم جوزى بثواب لا ينقطع أبداً ، ومن تأخر عن الطاعة وكذب محمداً

صلى الله عليه وسلم عوقب عقاباً لا ينقطع أبداً .

وقال الحسن : هذا وعيد وتهديد وإن أخرج مخرج الخير كقوله : « **فَمَنْ شَاءَ** »

فَلْيُؤْمَرْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ » .

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ
يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ؟ (٤٢) قَالُوا
لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَحْوُ
مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧)
فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ؟ (٤٩)
كَانَ لَهُمْ حُرْمٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ
أُمَّرٍ مِنْهُمْ أَنْ يُوتَىٰ صُحُفًا مُنشَّرَةً (٥٢) كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣)
كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (٥٥) وَمَا يَذْكَرُونَ إِلَّا أَنْ
يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ (٥٦)

شرح المفردات

رهينة: أى مرتبنة بعملها مأخوذة به إما خلصها وإما أوقها، أصحاب اليمين:
هم من أعطوا كتبهم بأيمانهم، ما سلككم: أى ما أدخلكم؛ تقول سلكت الخيط
فى ثقب الإبرة: أى أدخلته فيه، نحووض مع الخائضين: أى نخالط أهل الباطل فى
باطلهم فكلمنا غوى غاوغوبنا معه، اليقين: هو الموت كما فى قوله: «واعتدربك حَتَّى
يَأْتِيكَ الْيَقِينُ» قاله ابن عباس، مستنفرة: أى نافرة، وقسورة: الرماة للصيد
واحدم قسور قاله سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد، منشرة: أى منشورة مبسوطة:
تقرأ وتلشر.

الإيضاح

(كل نفس بما كسبت رهينة) أى كل نفس مرتبهة بكسبها عند الله غير مفكوكه عنه ، كافرة كانت أو مؤمنة ، عاصية أو طائعة .

(إلا أصحاب اليمين) فإنهم فكوا رقابهم بحسن أعمالهم ، كما يخلص الرهن رهنه بأداء الحق الذى وجب عليه .

ثم بين مال أصحاب اليمين فقال :

(فى جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم فى سقر؟) أى هم فى غرفات الجنات يسألون المجرمين وهم فى الدرجات قائلين لهم : ما الذى أدخلكم فى سقر؟ فأجابهم بأن هذا العذاب كان لأموار أربعة :

(١) (قالوا لم نك من المصلين) أى لم تكن فى الدنيا من المؤمنين الذين يصلون لله ، لأننا لم تكن نعتقد بفرضيتها .

(٢) (ولم نك نطعم المسكين) أى ولم تكن من المحسنين إلى خلقه الفقراء بفضل أموالنا ، المتصدقين عليهم بما تجود به نفوسنا .

(٣) (وكنا نخوض مع الخائضين) أى وكنا لانبالى بالخوض فى الباطل مع من يخوض فيه . قال ابن زيد : نخوض مع الخائضين فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم فنقول إنه كاذب ساحر مجنون ، وفى أمر القرآن فنقول إنه سحر وشعر وكهانة ؛ إلى نحو أولئك من الأباطيل .

(٤) (وكنا تكذب بيوم الدين) أى وكنا تكذب بيوم الجزاء والحساب .

(حتى أتانا اليقين) أى حتى علمنا صحة ذلك عيانا بالرجوع إلى الله فى الدار الآخرة .

(فما تنفعهم شفاعة الشافعين) أى فهم بعد انصافهم بهذه الصفات لاتنفعهم

شفاعة شافع ، لأن لهم النار خالدن فيها أبدا .

(فألهم عن التذكرة معرضين؟) أى فأى شئ^٢ حصل لأهل مكة حتى أعرضوا عن القرآن الذى هو مشتمل على التذكرة الكبرى ، والموعظة العظمى ، قال مقاتل : إعرضهم عنه من وجهين :

(١) جحودهم وإنكارهم له .

(٢) ترك العمل بما فيه .

(كأنهم حُمْرٌ مُسْتَنْفَرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ) أى كأن هؤلاء المشركين فى فرارهم من محمد صلى الله عليه وسلم حُمْرٌ وحشية هاربة من رماة يرمونها ويتمتعون بها لصيدها واقتراسها .

وفى هذا إيماء إلى أنهم مع موجبات الإقبال إلى الداعى والانتعاض بما جاء به يعرضون عنه بغير سبب ظاهر ، فأى شئ^٣ حصل لهم حتى أعرضوا عنه ؟

وفى تشبيههم فى إعرضهم عن القرآن واستماع ما فيه من المواعظ ، وشرادهم عنه بحُمْرٌ وحشية جدت فى نفارها مما أفرغها - تهجين لحالمهم ، وشهادة عليهم بالبله ، فلا ترى مثل نفار حُمْر الوحش ، وإطرادها فى العدو إذا هى خافت من شئ^٤ .

ثم بين أنهم بلغوا فى العناد حدا لا يتقبله عقل ، ولا يستسيغه ذو نفس حساسة فقال :

(بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا مفسرة) أى هم قد بلغوا فى العناد حدا لا تجدى معهم فيه التذكرة ، فكل واحد منهم يريد أن ينزل عليه كتاب مفتوح من السماء كما أنزل على نبيه ، وجاء نحو هذا فى قوله تعالى حكاية عنهم : « لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا مَقْرُونًا » .

روى أن أبا جهل وجماعة من قريش قالوا : يا محمد إن تؤمن بك حتى تأتى كل واحد منا بكتاب من السماء ، عنوانه من رب العالمين إلى فلان بن فلان وتؤمر فيه باتباعك .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : إن المشركين كانوا يقولون إن كان محمد صادقاً فليصيح عند رأس كل واحد منا صحيفة فيها براءته من النار .

(كلا) زجر لهم وتوبيخ على اقتراحهم لتلك الصحف المنشرة ، أى فهم لا يؤمنونها .

ثم بين سبحانه سبب هذا التعنت والاقتراح فقال :

(بل لا يخافون الآخرة) أى إنما دشأم وطبع على قلوبهم وأعمى أبصارهم أنهم كانوا لا يصدقون بالآخرة ، ولا يخافون أهوالها ؛ ومن ثم عرضوا عن التأمل فى تلك المعجزات الكثيرة ، وقد كانت كافية لهم جِدًّا الكفاية فى الدلالة على صدق دعوى محمد صلى الله عليه وسلم للنبوة ، فطلب الزيادة يكون من التعنت الذى لا مسوغ له .

ثم ونحوهم على إعراضهم عن التذكرة فقال :

(كلا إنه تذكرة) أى ليس الأمر كما يقول المشركون فى هذا القرآن من أنه سحر يؤثر ، بل هو تذكرة من الله خلقه ذكرهم به ، فليس لأحد أن يعتذر بأنه لم يجد مذكراً ولا معرّفاً .

ثم ذكر ما هو كالنتيجة لما سلف فقال :

(فمن شاء ذكره) أى فمن شاء من عباده أن يذكره ولا ينساه ويجعله نصب عينيه فعل ، فإن نفع ذلك راجع إليه ، وبه سعاده فى الدارين .

ثم رد سبحانه المشيئة إلى نفسه فقال :

(وما يذكرون إلا أن يشاء الله) أى وما يذكرون هذا القرآن ولا يتعظون بعظاته ويعملون بما فيه إلا أن يشاء الله أن يذكرهم ، فلا يستطيع أحد أن يفعل شيئاً إلا أن يعطيه الله القدرة على فعله ، إذ لا يقع فى ملكه سبحانه إلا ما يشاء كما قال سبحانه : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » .

ثم ذكر ما هو كالعلة لما سلف فقال :

(هو أهل التقوى وأهل المغفرة) أى فالله هو الحقيق بأن يتقيه عباده ،
ويخافوا عقابه ، فيؤمنوا به ويطيعوه ، وهو التّمينُ بأن يغفر لهم ما ساف من كفرهم
إذا آمنوا به وأطاعوه .

عن أنس رضى الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فقال :
قال ربكم : أنا أهل أن أتقى ، فلا يجعل معى إلهٌ ، فمن اتقانى فلم يجعل معى إلهاً
فأنا أهل أن أغفر له » أخرجه أحمد والدارمى والترمذى وحسنه والنسائى وابن ماجه
فى خلق كثير غيرهم .

والحمد لله رب العالمين ، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله أجمعين .

سورة القيامة

هي مكية، وعدد آياتها أربعون، نزلت بعد سورة القارعة.

ووجه اتصالها بما قبلها، أنه ذكر في السورة السابقة قوله: «كَلَّا بَلْ لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ» وكان عدم خوفهم منها لإنكارهم للبعث، وذكر هنا الدليل عليه بأنهم وجه، فوصف يوم القيامة وأحواله وأحواله، ثم ما قبل ذلك من خروج الروح من البدن، ثم ما قبل ذلك من مبدأ الخلق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ
الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ يَجْمَعَ عِظَامُهُ (١) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤)
بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ (٦) فَإِذَا
بَرَاقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ
الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُغُ؟ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ
الْمُسْتَقَرُّ (١٢) مُنْتَبِئًا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ الْإِنْسَانُ
عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (١٥).

شرح المفردات

(لا أقسم) تزيد العرب كلمة (لا) في القسم كما قال امرؤ القيس:

لا وأبيك ابنة العامري لا يدعى القوم أنى أفر

ويرى قوم أن (لا) نافية رد للكلام كان قد تقدم وجواب لهم، وذلك هو

المعروف في كلام الناس في محاوراتهم ؛ فإذا قال أحدهم : لا والله لا فعلت كذا — قصد بقوله (لا) رد الكلام السابق ، وبقوله والله ابتداء يمين ، فهم لما أنكروا البعث قيل لهم : ليس الأمر على ما ذكرتم ؛ ثم أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة : إن البعث حق لا شك فيه .

ويرى جمع من المفسرين أنها للنفى على معنى أنى لأعظمه بإقسامي به حق إعظامه ، فإنه حقيق بأكثر من هذا وهو يستأهل فوق ذلك .

قال مجاهد : النفس اللوامة هي التي تلوم نفسها على ما فاتت ، وتندم على الشر لم فعلته ؟ وعلى الخير لم لم تستكثر منه ؟ فهي لم تزل لأئمة وإن اجتهدت في الطاعات (بلى) كلمة يجاب بها إذا كان الكلام منفيًا ، فالمراد بها هنا نعم نجمعها بعد تفرقها ، والبنان واحده بنانة وهي الأصابع . قال النابغة :

بمخضَّب رخص كأن بنانه عَمَّ يكاد من اللطافة يُعقَد

ليفجر أمامه : أي ليدوم على فجوره في الحاضر والمستقبل لا ينزع عنه ، برق تحير فزعاً من قولهم : برق الرجل إذا نظر إلى البرق فدُهِش بصره ، قال ذو الرمة :

ولو أن لقمان الحكيم تعرّضت لعينيه مى سافراً كاد يبرق

وخسف القمر : ذهب ضوءه ، والمفر : الفرار ، والوزر : الملجأ ؛ وأصله الجبل المنيع ، ومنه قوله :

لعمرك ما لفتى من وزر من الموت يدركه والكبير

ينبأ : أي يخبر ، بصيرة : أي حجة شاهدة على ما صدر منه ، والمعاذير : ما يعتذر به .

المعنى الجملى

أقسم تعالى بعظمة القيامة ، وبالنفس الطموحة إلى الرقى ، الجانحة إلى العلو ، التي لاتصل إلى مرتبة إلا طلبت ما فوقها ، ولا إلى حال إلا أحبت ما تلاها — إن

هناك حالاً أخرى للنفس تنال فيها رغائبها، في عالم أكمل من هذا العالم، عالم السعادة الروحية للمطيعين، وعالم الشقاء للجاحدين المعاندين .
وهذا القسم وأمثاله لم يطرق آذان العرب من قبل، فهم كانوا يقسمون بالأب والعم والكعبة ونحو ذلك .

روى أن عدى بن أبي ربيعة سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يوم القيامة متى يكون وما حاله وأمره فأخبره به، فقال : لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك ولم أومن بك، أو يجمع الله هذه العظام ؟ فنزلت هذه الآيات، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم اكفني شر جاري السوء » .

الإيضاح

(لا أقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة) أقسم سبحانه بيوم القيامة وعظيم أهواله، وبالنفس التواقفة للعالمى التى تندم على الشر لمفلمته، وعلى الخير لم تستكثر منه، فهى لم تنزل لأئمة وإن اجهدت فى الطاعة - لتبعن وتجاهبن على ما تفعلون .

وقال الفراء : ليس من نفس برّة ولا فاجرة إلا وهى تلوم نفسها، إن كانت عملت خيراً قالت هلاً ازددت، وإن كانت عملت سوءاً قالت ليتنى لم أفعل، وعلى هذا فهو مدح للنفس، والقسم بها سائغ حسن اهـ .

وقسمه سبحانه بيوم القيامة لتنظيمه وتخييم شأنه، والله أن يقسم بما شاء من خلقه . قال سعيد بن جبير : سألت ابن عباس عن قوله « لا أقسم بيوم القيامة » قال : يقسم ربك بما شاء من خلقه .

(أَيْحَسب الإنسان أن لن نجوع عظامه ؟ بلى قادرين على أن نسوي بنانه) أى أياظن ابن آدم أن لن تقدر على جمع عظامه بعد تفرقها ؟ بلى نحن قادرون على ذلك وأعظم منه، فنحن قادرون على أن نسوي بنانه وأطراف يديه ورجليه، ونجعلهما

شيئاً واحداً كحف البعير وحافر الحمار ، فلا يستطيع أن يعمل بها شيئاً مما يعمله بأصابعه المفرقة ذات المفصل والأنامل ، من فنون الأعمال التي تحتاج إلى القبض والبسط ، والتأني في عمل ما يراد من الشئون كالغزل والنسج والضرب على الأوتار والعيدان ، إلى نحو أولئك .

والخلاصة — إنا لقادرون على جمع العظام وتأليفها وإعادةها إلى مثل التركيب الأول بعد تفرقتها وصيرورتها عظاماً ورفاتاً في بطون البحار ، وفسيح القفار ، وحيثما كانت ، وعلى أن نسوى أطراف يديه ورجليه ونجعلها شيئاً واحداً فيكون كالجلج والحمار ونحوهما ، فيأكل كما تأكل ، ويشرب كما تشرب ، وفي ذلك خسران كبير له ، وتشويه خلقه ، وإفساد لوظيفته التي أعدّها لها في الحياة .

(بل يريد الإنسان ليفجر أمامه) أى لا يحجل ابن آدم أن ربه قادر على أن يجمع عظامه ، لكنه يريد أن يمضى قدماً في المعاصى لا يثنيه عنها شيء ، ولا يتوب منها ، بل يسوف بالتوبة فيقول : أعمل ثم أتوب بعد ذلك .

والخلاصة — إنه انتقل من إنكار الحساب ، إلى الإخبار عن حال الإنسان الحاسب ، ليكون ذلك أشد في لومه وتوبيخه كأنه قيل : دع تعنيفه على ذلك ، فإنه قد بلغ من أمره أنه يريد أن يداوم على فجوره فيما يستأنف من الزمان ولا يتخلى عنه .

ثم علل إرادته دوام الفجور بقوله :

(يسأل أيان يوم القيامة ؟) أى يسأل سؤال متعنت مستبعد ، متى يكون هذا اليوم ؟ ومن أنكر البعث أشد الإنكار ، ارتكب أعظم الآثام ، وخب فيها ووضع غير عابى بعاقبة ما يصنع ، ولا مقدّر نتائج ما يكتب .

ونحو الآية قوله : « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ » ، وقوله : « هَبْهَاتَ هَبْهَاتٍ لِمَا تُوعَدُونَ . إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ » .

وقصارى ماسلف أنهم أنكروا البعث لوجهين :

(١) شبهة تعترض الخاطر: كقولهم إن أجزاء الجسم إذا تفرقت واختلطت بالتراب، وسارت في مشارق الأرض ومغاربها ، كيف يمكن تمييزها وإعادةها على النحو الذى كانت عليه أولاً ، ولهؤلاء جاء الرد بقوله : « أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَهُ عِظَامَهُ . بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ » .

(٢) حب الاسترسال في اللذات ، والاستكثار من الشهوات ، فلا يود أن يقرّ بمحشر ولا بعث حتى لا تتنقص عليه لذاته ، ومثل هؤلاء قال : « بَلْ مُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ » .

وقد ذكر سبحانه من علامات يوم القيامة أموراً ثلاثة فقال :

(١) (فإذا برق البصر) أى إذا تحير البصر ودهش فلم يطرّف من شدة الهول ومن عظم ما يشاهد ، قال القراء : تقول العزب للإنسان المتحير المبهوت : قد بزق ، وأنشد :

فَنَفْسِكَ فَانَعٍ وَلَا تَتَنَعَى وَدَارِ الْكَلُومِ وَلَا تَبْرِقِ

أى لا تنزع من كثرة الكلوم والجروح التى أصابتك .
ونحو الآية قوله : « لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ » .

(٢) (وخسف القمر) أى ذهب ضوؤه ، كما نعلمه من حاله في الدنيا ، إلا أن الخسوف في الدنيا إلى انجلاء ، وفي الآخرة لا يعود ضوؤه .

(٣) (وجمع الشمس والقمر) أى أدرك كل واحد منهما صاحبه وطلعا من المغرب أسودين مكورين مظلمين على ما روى عن ابن مسعود، وقد كان هذا مستحيلا في الدنيا كما جاء في قوله سبحانه : « لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ » .

(يقول الإنسان يومئذ أين المفر؟) أى يقول الإنسان حينئذ لدهشته وحيرته :
أين المفر من جهنم؟ وهل من ملجأ منها؟ فأجيبوا حينئذ :

(كلا لاوزر) أى كلا لاشئ يُعْتَصَمُ به من أمر الله ، فلا حصن ولا جيل
ولا سلاح يقيمكم شيئاً من أمره ، قال الشدى : كانوا إذا فرغوا فى الدنيا تحصنوا
بالجبال ، فقال الله لهم : لاوزر يعصمكم منى .

ونحو الآية قوله : « مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ » .
ثم كشف عن حقيقة الحال وبيّنها بقوله :

(إلى ربك يومئذ المستقر) أى إلى ربك مرجحك فى جنة أوتار ، وأمر ذلك
مفوّض إلى مشيئته ، فمن شاء أدخله الجنة ، ومن شاء أدخله النار .
ونحو الآية قوله : « وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى » .

ثم ذكر أن ماله رهن بما عمل فقال :

(ينبأ الإنسان يومئذ بما قدّم وأخر) أى يخبر الإنسان حين العرض والحساب
ووزن الأعمال — بجميع أعماله قديمها وحديثها ، أولها وآخرها ، صغيرها وكبيرها كما
قال : « وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا » .

قال القشبرى : وهذا الإنباء يكون يوم القيامة عند وزن الأعمال ؛ وعن
أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سبع يُجْرَى أجرها للعبد بعد
موته وهو فى قبره ، من علم علما ، أو أجرى نهرا ، أو حفر بئرا ، أو غرس ظلا ، أو بنى
مسجدا ، أو ورّق مصحفا ، أو ترك وليا يستغفر له بعد موته » .

ثم بيّن أن أعظم شاهد على المرء نفسه ، فهى نعم الشاهد عليه فقال :
(بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره) بل الإنسان حجة بيّنة على
نفسه ، فلا يحتاج إلى أن ينبئه غيره ، لأن نفسه شاهدة على ما فعل ، فسمعه وبصره
ويده ورجلاه وجوارحه شاهدة عليه ، وسيحاسب عليه مهما أتى بالمعاذير وجادل

غنها كما قال : « أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا » .

وقال الفراء في الآية : بل الإنسان على نفسه عين بصيرة ، وأشد :

كأن على ذى العقل عينا بصيرة بمجلسه أو منظر هو ناظرة
يخادر حتى يحسب الناس كلهم من الخوف لا يخفى عليهم سريره

لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧)
فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ
الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ
رَبِّهَا نَاطِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا
فَاقِرَةٌ (٢٥) .

شرح المفردات

لتعجل به : أى لتأخذه على عجل مخافة أن يتفقت منك ، وقرءانه : أى قراءته
أى إثباتها فى لسانك ، قرآنه : أى قرأه جبريل عليك ، فاتبع قرءانه : أى فاستمع
قراءته ، وكررها حتى يرسخ فى نفسك ، بيانه : أى تفسير ما فيه من الحلال والحرام
وبيان ما أشكل من معانيه ، والعاجلة : دار الدنيا ، ناصرة : أى متهلة بشرا بما
ترى من النعيم ، ناظرة : أى تنظر إلى ربها عيانا بلا حجاب ، باسرة : أى شديدة
العبوس كالخلة متغيرة مسودة ، تظن : أى تستيقن ، فاقرة : أى داهية عظيمة
تكسر فقار الظهر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن النكير للقيامة والبعث معرض عن آيات الله ، منكر لعظيم
قدرته ، وأنه سائر فى غلوائه ، غير مكترث بما يصدر منه — أزدفه بذكر حال من

يثابر على تعلم آيات الله وحفظها وتلقنها والنظر فيها وعرضها على من يتكرها ، رجاء قبوله إياها ، ليظهر بذلك تباين حال الفريقين : من يرغب في تحصيل آيات الله ، ومن يرغب عنها « وبضدها تتبين الأشياء » ثم عاد إلى ذكر السبب في إنكار البعث وهو حبّ بنى آدم للعاجلة ، وتركهم للآخرة ، ثم ذكر كما يكون في ذلك اليوم من استبشار المؤمنين و بُسُور المشركين وملاقاتهم للشدائد والأهوال ، وظنهم أن ستراكم عليهم الدواهي التي تكسرقفار ظهورهم .

الإيضاح

علم الله رسوله كيف يتلقى الوحي من الملاك ، إذ كان يسابقه في قراءته فأمره أن يستمع إليه إذا جاء وقد كفل له : (١) أن يحفظه له . (٢) أن يبصره لأدائه على الوجه الذى ألقاه إليه . (٣) أن يبينه ويفسره له .
وقد أشار إلى الأول بقوله :

(لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه) أى لا تحرك أيها الرسول الكريم بالقرآن لسانك وشفثيك ، لتأخذ على عجلة مخافة أن يتفقت منك ، فإن علينا أن نجعله لك حتى تثبته في قلبك . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي يحرك به لسانه وشفثيه ، فيشتد عليه ويعرف ذلك في تحريكه شفثيه حتى نزلت الآية ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتاه جبريل أطرق ، فإذا ذهب قرأه كما أمره الله .

عن ابن جبير عن ابن عباس قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة بتجريك شفثيه ، فقال لى ابن عباس : أنا أحركهما كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحركهما ، فأنزل الله عز وجل : « لا تحرك به لسانك » رواه مسلم .

وأشار إلى الثاني بقوله :

(فإذا قرأناه فانبعقراءه) أى فإذا تلى عليك فاعمل بما فيه من شرائع وأحكام.

وقد يكون المراد — فإذا تلاه عليك الملك فاستمع له ثم اقرأه كما أقرأك .

وأشار إلى الثالث بقوله :

(ثم إن علينا بيانه) أى ثم إننا بعد حفظه وتلاوته ، نبينه لك ونلهمك معناه

على ما أردنا وشرحنا .

ثم أعاد القول فى توبيخ المشركين على إنكارهم للبعث فقال :

(كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة) أى ليس الأمر كما تقولون أيها

المشركون : من أنكم لا تبعثون بعد مماتكم ، ولا تجازون بأعمالكم ، ولكن الذى

دعاكم إلى قيل ذلك محبتكم للنديا العاجلة، وإيثاركم شهواتها على آجل الآخرة ونعيمها،

فأنتم تؤمنون بالعاجلة وتكذبون بالآجلة .

قال قتادة — اختار أكثر الناس العاجلة إلا من رحم الله وعصم .

والخلاصة — إنكم يا بنى آدم خلقت من عجل وطبعتم عليه ، فتمعجلون فى كل

شئ ، ومن ثم تحبون العاجلة ، وتذرون الآخرة .

ثم بين ما يكون من أحوال المؤمنين وأحوال الكافرين فقال :

(١) (وجوه يومئذ ناضرة) أى فوجوه المؤمنين الخالصين حين تقوم القيامة

مضيئة مشرقة ، تشهد عليها نضرة النعيم .

(إلى ربها ناظرة) أى تنظر إلى ربها عيانا بلا حجاب ، قال جمهور أهل العلم:

المراد بذلك ما توارت به الأحاديث الصحيحة من أن العباد ينظرون إلى ربهم

يوم القيامة كما ينظرون إلى القمر ليلة البدر .

قال ابن كثير : وهذا بحمد الله مجمع عليه من الصحابة والتابعين وسلف هذه

الأمة ، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام وهداة الأنام اه .

روى البخارى فى صحيحه « إنكم سترون ربكم عيانا » وروى الشيخان عن أبى سعيد وأبى هريرة « أن ناساً قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال : هل تضارون فى رؤية الشمس والقمر ليس ذونهما سحب؟ قالوا لا ، قال : فإنكم ترون ربكم كذلك » .

وروى ابن جرير عن مجاهد أنه قال : إن النظر هنا انتظار ما لهم عند الله من الثواب ، قال الأزهرى : قد أخطأ مجاهد ؛ لأنه لا يقال نظر إلى كذا بمعنى انتظار ، فإن قول القائل : نظرت إلى فلان ليس إلا رؤية عين ، فإذا أرادوا الانتظار قالوا نظرت ، وأشعار العرب وكلماتهم فى هذا كثيرة جدا اهـ .

(٢) (ورجوه يومئذ بأسرة . تظن أن يفعل بها فاقرة) أى ووجوه الفجار تكون يوم القيامة عابسة كالحلة مستيقنة أنها ستصاب بداهية عظيمة تقصم فقار ظهرها وتهلكها .

ونحو الآية قوله : « يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ » وقوله : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ . وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ . أُولَئِكَ هُمُ الْكُفَرَةُ الْفَجَرَةُ » .

كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ؟ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالتَّتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (٣٣) أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٤) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٥) أَلَيْسَ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧)

مُّمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَاقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ
وَالْأُنثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (٤٠)

شرح المفردات

التراقى : العظام المكتنفة ثغرة النحر عن يمين وشمال، واحدها ترقوة، من راق :
أى من يرقيه وينجيه مما هو فيه على نحو ما يستشفى به الملسوع والمريض من الكلام
الذى يُعدُّ لذلك ؛ والمراد هل من طبيب يشفى بالقول أو بالفعل ، الفراق : أى من
الدنيا حبيبته ، التفَّت الساق بالساق : أى التوت عليها حين هلع الموت وقلقه ؛ والمراد
أنه اشتد عليه الخطب ، المساق : المرجع والمآب ، فلا صدق ولا صلى : أى فلا آمن
بقلبه ولا عمل بيده ، يتمطى : أى يتبختر افتخارا ، أولى لك : أى ويل لك ، وهو
دعاء عليه بأن يليه ما يكره ، فأولى : أى فهو أولى بك من غيرك ، فذلت الأولى على
الدعاء عليه بقرب المكروه ، وذلت الثانية على الدعاء عليه بأن يكون أقرب إليه
من غيره ، سدئى : أى مهملا لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يكلف فى الدنيا ولا يحاسب ،
نطفة : أى ماء قليلا وجمعها نطاف ونطف ، يعنى : أى يراق ويصب فى الرحم ،
علقة : أى قطعة دم جامد .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أحوال يوم القيامة وما يرى فيها من عظيم الأحوال ، ووصف
سعادة السعداء ، وشقاوة الأشقياء بين أن الدنيا لها نهاية ونفاد ثم تكون مرارة الموت
وآلامه ، وأن الكافر قد أضاع الفرصة فى الدنيا ، فلا هو صدق بأوامر دينه ،
ولا هو أدى فرائضه .

ثم أقام الدليل على صحة البعث من وجهين :

- (١) أنه لا بد من الجزاء على صالح الأعمال وسيئها، وثواب كل عامل بما يستحق، وإلا تساوى المطيع والمعاصي، وذلك لا يليق بالحكيم العادل جل وعلا .
- (٢) أنه كما قدر على الخلق الأول وأوجد الإنسان من منى يمى، فأهون عليه أن يعيده خلقاً آخر !

الإيضاح

(كلا) ردع وزجر: أى ازدجروا ونهبوا إلى ما بين أيديكم من الموت، فأعلموا عن إشار الدنيا على الآخرة، فستنقطع الصلة بينكم وبينها وتنتقلون إلى الدار الآخرة التى ستكونون فيها مخلدين أبدا .

ثم وصف الحال التى تفارق فيها الروح الجسد فقال :

(إذا بلغت التراقي) أى إذا بلغت الروح أعالي الصدر، وأشرقت النفس على الموت، قال دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ :

وَرُبَّ عَظِيمَةٍ دَافَعَتْ عَنْهَا وَقَدْ بَلَغَتْ نَفْسُهُمُ التَّرَاقِي

والعرب تحذف من الكلام ما يدل عليه يقولون أرسلت: يريدون أرسلت السماء المطر، ولا تكاد تسميهم يقولون: أرسلت السماء، قال حاتم يخاطب زوجته :

أَمَارِيٌّ مَا يَنْزِي الثَّرَاءَ عَنِ النَّعْيِ إِذَا حَشَرَجْتَ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ
وَنَحْوُ الْآيَةِ قَوْلُهُ : « فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ . وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ » .

(وقيل من راق؟) أى وقال أهله: من يرقيه ليشفيه مما نزل به؟ قال قتادة: التمسوا له الأطباء فلم يغنوا عنه من قضاء الله شيئاً، وقال أبو قلابة: ومنه قول الشاعر:

هل للفتى من بنات الموت من وراق أم هل له من حمام الموت من راقى

(وظن أنه الفراق) أى وأيقن المحتضر أن ما نزل به نذير الفراق من الدنيا والمال والأهل والولد، وسمى هذا اليقين ظناً؛ لأن المرء مادامت روحه متعلقة ببديته

يطمع في الحياة لشدة حبه لهذه العاجلة كما قال: (كلا بل تحبون العاجلة) فلا يحصل له يقين الموت، بل الظن الغالب مع رجاء الحياة.

(والتفت الساق بالساق) أي التوت ساقه بساقه فلا يقدر على تحريكهما، قال قتادة: أما رأيت به إذا أشرف على الموت يضرب برجله على الأخرى، وقال ابن عباس: المراد التفت شدة فراق الدنيا بشدة خوف الآخرة واختلطتا، فالتفت بلاء بيلاء، والعرب تقول لكل أمر اشتد، شمر عن ساقه، وكشف عن ساقه، قال الباقية الجندی:

أخوال الحرب إن عضت به الحرب عضها وإن شمّرت عن ساقها الحرب شمّرا
(إلى ربك يومئذ المساق) أي إلى خالقك يوم القيامة الرجوع والمآب، والمراد إنك صائر إلى جنة أو نار.

وجواب إذا وتام الجملة يقدر بنحو قولنا — انكشفت الدرء حقيقة الأمر، أو وجد ما عمله من خير أو شر حاضرا بين يديه.

ثم ذكر ما كان قد فرط منه في الدنيا فقال:

(فلا صدق ولا صلي. ولكن كذب وتولي) أي فاصدق بالله ووحدايته، بل اتخذ الشركاء والأنداء ووجد كتبه التي أنزلها على أنبيائه، وما صلي وأدى فرائضه التي أوجبها عليه، بل أعرض وتولى عن الطاعة.

(ثم ذهب إلى أهله يتمطى) أي ليمته اقتصر على الإعراض والتولي عن الطاعة بل هو قد ذهب إلى أهله جذلان فرحا، يمشي الخيلاء متبخترا.

والخلاصة — إن هذا الكافر كان في الدنيا مكذبا للحق بقلبه، متوليا عن العمل بحوارجه، معجبا بما فعل، فلا خير فيه لاباطنا ولا ظاهرا.

ثم هدده وتوعده فقال:

(أولى لك فأولى) أي ويل لك مرة بعد أخرى، وأهلكك الله هلاكا أقرب لك من كل شر وهلاك.

ويرى قوم أن معنى أولى أجمل وأخرى، فيكون المراد - النار أولى بك وأجمل .
ثم كرر هذا الوعيد فقال :

(ثم أولى لك فأولى) أى يتكرر هذا الدعاء عليك مرة بعد أخرى ، فانت
جدير بهذا .

روى قتادة « أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ بيد أبي جهل فقال : أولى لك فأولى
ثم أولى لك فأولى ، فقال عدو الله : أتوعدنى يا محمد ، والله ما تستطيع لى أنت
ولا ربك شيئاً ، والله لأنا أعز من مشى بين جبلها ، فلما كان يوم بدر أشرف عليهم
فقال : لا يعبد الله بعد هذا اليوم ، فقتل إذ ذاك شرّ قتله » .

وعن سعيد بن جبير قال : سألت ابن عباس عن قول الله تعالى : « أَوْلَىٰ لَكَ
فَأَوْلَىٰ » أشيء قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم من نفسه أم أمره الله تعالى به ؟
قال بل قاله من قبل نفسه ، ثم أنزله الله تعالى » .
ثم أقام الدليل على البعث من وجهين :

(١) (أحسب الإنسان أن يترك سدى) أى لا يترك الإنسان فى الدنيا مهملًا
لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يترك فى قبره مهملًا لا يحاسب ، بل هو مأمور منهى محشور
إلى ربه ، فخالق الخلق لا يساوى الصالح الزكى نفسه بصالح الأعمال ، والطالح المدسّى
نفسه باجتراح السيئات والآثام كما قال : « إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ
كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ » وقال : « أَمْ نَجْمَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
كَالْمُسَدِّينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْمَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ » .
وإذا فلا بد من دار للأواب والعقاب والبعث والقيامة .

(٢) (ألم يك نطفة من منى يمى . ثم كان علقة نخلق فسوى . فجعل منه
الزوجين الذكر والأنثى ؟) أى أما كان هذا المنكر قدرة الله على إحيائه بعد مماته
وإيجاده بعد فنائه - نطفة فى صلب أبيه ، ثم كان علقة ثم سواه بشرا ناطقا سمعيا
بصيرا ، ثم جعل منه أولادا ذكورا وإناثا بإذنه وتقديره ؟ .

(أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟) أي أليس الذي أنشأ هذا الخلق السوي من هذه النطفة المذرة بقادر على أن يعيده كما بدأه؟ فذلك أهون من البدء في قياس العقل كما قال: «وَهُوَ الَّذِي بَدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» .

وقد جاء من طرق عدة «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية قال: سبحانك اللهم وأبى وأخرج أحمد وأبو داود وابن مردويه والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قرأ منكم: «وَالَّذِينَ وَالزَّيْتُونَ، وانتهى إلى آخرها: أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ» فليقل: بلى وأنا على ذلكم من الشاهدين، ومن قرأ: «لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فأنتهى إلى: أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى» فليقل بلى، ومن قرأ المرسلات فبلغ «فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ» فليقل آمنا بالله .

والحمد لله رب العالمين، وصلاته وسلامه على سيد المرسلين .

سورة الانسان

هى مدنية ، وآياتها إحدى وثلاثون ، نزلت بعد سورة الرحمن .
وصلتها بما قبلها ، أنه ذكر في السابقة الأهوال التى يلقاها الفجار يوم القيامة ،
وذكر في هذه ما يلقاه الأبرار من النعيم المقيم فى تلك الدار .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا (١)
إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢)
إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣)

شرح المفردات

هل : أى قد ، حين : أى طائفة محدودة من الزمان ، والدهر : الزمان غير
المحدود ، أمشاج : أى أخلاطٍ واحدها مشج (بفتححتين) ومشيح ، نبتليه : أى
نختبره ، السبيل : الطريق ، أى ينصب الدلائل وإزال الآيات .

المعنى الجملى

أخبر سبحانه أنه قد جاء على الإنسان حين من الزمان لم يكن شيئاً يُذكر
ويُعرف ، ثم ذكر أن أبناء آدم كانوا نطفةً فى الأصلاب ، ثم علقا ، ثم مُضغاً
فى الأرحام ، ثم أوضح لهم السبيل ، وبين لهم طريق الخير والشر ، فمنهم الشاكر
ومنهم الكفور .

الإيضاح

(هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) أى قد أتى على
هذا النوع نوع الإنسان زمن لم يكن موجوداً حتى يعرف ويذكر .

قال الفراء وتعلب : المراد أنه كان جسدا مصورا ترابا وطينا لا يذكر ولا يعرف ولا يدري ما اسمه ولا ما يراد به ، ثم نفخ فيه الروح فصار مذكورا .

وفي الآية ما يشير إلى مقاله علماء طبقات الأرض (الجيولوجيا) من أن الإنسان لم يوجد على الأرض إلا بعد خلقها بأحقاب طوال ، فقد كانت الأرض أولا ملتصقة بعد أن انفصلت من الشمس ، ثم أخذت قشرتها تبرد بالتدريج ، وأمكن أن ينبت فيها النبات ، ثم بعض الطيور ، ثم بعض الحيوان الداجن ، ثم الإنسان ؛ وقد بينا ذلك عند تفسير قوله تعالى « هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » وذكرنا هناك أن الأيام هي الأطوار التي مر عليها خلق السموات والأرض إلى آخر ما قلنا هناك .

ثم أتبع ذلك بذكر العناصر الداخلة في تكوين الإنسان فقال :

(إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه) أى إنا خلقنا الإنسان من نطفة اجتمعت فيها ماء الرجل بماء المرأة ، مر يدين ابتلاءه واختباره بالتكليف فيما بعد إذا شبّ وبلغ الحلم . قال الحسن : نختبر شكره في السراء ، وصبره في الضراء .
وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : الأمشاج الحمرة في البياض والبياض في الحمرة . وهذا قول يختاره كثير من أهل اللغة ، قال الهذلي يصف سهما :

كأن الريش والفوقين منه خلاف الفلّ سيف به مشيج

وقال قتادة : هي أطوار الخلق ، طوراً نطفة ، وطورا علقة ، وطورا مضغة ، وطورا عظاما ، ثم تكسى العظام لحما كما قال في سورة المؤمنين : « وَاتَّقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ » الآية .

ثم ذكر أنه أعطاه ما يصح معه الابتلاء والامتحان ، وهو السمع والبصر فقال :
(فجعلناه سميعا بصيرا) أى جعلناه كذلك ليتمكن من استماع الآيات ومشاهدة الدلائل والتعقل والتفكير .

وهذه من عالم أشرف من عالم المادة التى هى فى أسفل درجات النقص ،
والكمال إنما نزل إليه من عالم أرقى منها وهو العالم الروحى الإلهى .

فهو إما أن يرجع إلى حب المادة والاستكناة لهذه المشاهدات ، وإما أن
يتفكر ويحدّ بالعلم والعمل ، ليصل إلى عالم الكمال والجمال ، وهذا ما عناه سبحانه
بقوله : « نَبِّئْهُمْ بِجَمَلِنَا هُ سَمِيعًا بَصِيرًا » .

والخلاصة — نحن نعامله معاملة المختبر له ، أي ميل إلى أصله الأرضى ، فيكون
حيوانا نباتيا معدنيا شهوانيا ، أم يكون إلهياً معتبرا بالسمع والبصر والفكر ، وهى
من عوالم أرقى من عالم المادة التى تكوّن منها .

ثم ذكر أنه بمد أن ركبه وأعطاه الحواس الظاهرة والباطنة بين له سبيل الهدى
وسبيل الضلال فقال :

(إنا هديناه السبيل) أى فأعطيناه السمع والبصر والقوَاد ، ونصبتنا له الدلائل
فى الأنفس والآفاق ، لتكون مسرحة لمكره ، ومقنا لعقله .

ثم بين أن الناس انقسموا فى ذلك فريقين فقال :
(إما شاكرا وإما كفورا) أى فبعض اهتدى وعرف حق النعمة فشكر ،
وبعض أعرض فكفر .

وإجمال ذلك — إنا هديناه السبيل ليمتيز شكره من كفره ، وطاعته
من معصيته .

ونحو الآية قوله : « لِيَنْبَلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » وقوله : « وَلَنْبَلُوَنَّكُمْ
حَتَّى نَعْلِمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبَلُوْا أَخْبَارَكُمْ » .

وروى مسلم عن أبى مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« كل الناس يفتدو فبائع نفسه فووقها أو ممتقها » .

إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (٤) إِنَّ الْأَبْرَارَ
 يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ
 يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ
 مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨)
 إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لَوْجِهَ اللَّهِ لَا بُرِيدُ مِنْكُمْ جِزَاءَ وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا
 نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا (١٠) فَوَنَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ
 الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَاهُمْ بِمَا صَابَرُوا جَنَّةَ
 وَحَرِيرًا (١٢)

شرح المفردات

أَعْتَدْنَا : أى هيأنا وأعددنا ، والأغلال : واحدها غل (بالضم) وهو القيد ،
 والسعير : النار الموقدة ، والأبرار : واحدهم برّ . قال فى الصحاح : جمع البر الأبرار ،
 وجمع البار البررة ، والأبرار هم أهل الطاعة والإخلاص والصدق . وقال قتادة : هم
 الذين يؤدون حق الله ويوفون بالنذر ، وقيل هم الصادقون فى إيمانهم ، المطيعون
 لربهم ، الذين سميت همتهم عن المحقرات ، فظهرت فى قلوبهم ينابيع الحكمة ،
 والكأس : هى الإنياء الذى فيه الشراب ، وقد يطلق الكأس على الخمر نفسها وهو
 المراد كما قال أبونواس :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

وقال عمرو بن كلثوم :

صبت الكأس عنا أم عمرو وكان الكأس مجراها المينا

والمزاج : ما يمزج به كالحزام لما يحزم به ، أى يكون شوبها وخلطها بماء الكافور كما قال :

كأن سبيئةً من بيت رأسٍ يكون مزاجها عسل وماء
وجعلت كالكافور لما فيه من البياض وطيب الرائحة والبرودة ، بها : أى منها ،
يفجرونها : أى يجرونها إلى منازلهم وقصورهم حيث شاءوا ، يوقون بالنذر : أى
يؤدون ما أوجبه على أنفسهم من الطاعات ، شره : أى شدائده ، مستطيرا : أى
فأشياء منتشرة في الأقطار من قولهم : استطار الحريق والفجر إذا انتشر ، عبوسا :
أى تمس فيه الوجوه ، قظيرا : أى شديد العبوس ، تقول العرب يوم قظير
وقاطر ، وأنشد القراء :

بني عمنا هل تذكرون بلاءنا عليكم إذا كان يوما قاطر
وقام : أى دفع عنهم ، لقام : أى أعطاهم ، نصره : أى حسنا وبهاء ، وسرورا
أى حبورا . قال الحسن ومجاهد : نصره فى وجوههم ، وسرورا فى قلوبهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه هدى الإنسان لطريق الخير وطريق الشر فى قوله :
« إِنَّا هَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » ثم أرفقه ببيان أن الناس انقسموا فى ذلك فريقين : فريق
وقفه الله واهتدى وشكر ، وفريق أضله الله وكفر ؛ أعقب ذلك بما أعده لكل
منهما يوم القيامة ، فأعد للأولين جنات ونعما ، فهم يشربون الخمر (وهى الأذى
لديهم) ممزوجة بماء عذب زلال ، طيب الرائحة ، تأتيهم إلى غرفهم متى شاءوا
وكيف أرادوا ، ويلبسون الحرير ويجلسون على الأرائك لا يرون فيها حرا ولا قرا ،
ثم ذكر ما أعده فى الدنيا لئيلهم هذا الثواب العظيم ، فبين أنهم يطعمون الطعام للفقراء
اليتامى والأسارى ، ويؤدون ماوجب عليهم لربهم ، ويخافون عذاب
يوم القيامة .

وأعد للآخرين سلاسل وقيودا ونارا تشوى الوجوه والأجسام .

الإيضاح

(إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا) أى إنا هيأنا لمن كفروا بنعمتنا وخالفوا أمرنا - سلاسل بها يقادون إلى الجحيم ، وأغلالا بها تشد أيديهم إلى أعناقهم كما يفعل بالمجرمين في الدنيا ، ونارا بها يحرقون .

ونحو الآية قوله : « إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ . فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ »

وبعد أن ذكر ما أعدده للكافرين بين ما أعدده للساكرين من شراب شهى ولباس بهى فقال :

(إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا . عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجييرا) أى إن الذين براء بطاعتهم ربهم فأدوا فرائضه واجتنبوا معاصيه - يشربون من نحر كان مزاج ما فيها من الشراب كالكافور طيب رائحة وبردا وبياضا .

وهذا المزاج من عين يشرب منها عباد الله المتقون وهم في غرف الجنات ، يسوقونها إليهم سوقا سهلا إلى حيث يريدون ، وينتفعون بها كما يشاءون ، ويتبهم ماؤها إلى كل مكان يحبون وصوله إليه .

قال مجاهد : يقودونها حيث شاءوا ، وتتبهم حيث مالوا .

ثم ذكر ما لأجله استحقوا الكرامة فقال :

(١) (يوفون بالنذر) أى يوفون بما أوجبوه على أنفسهم ، ومن أوفى بما أوجبه على نفسه فهو على الوفاء بما أوجبه الله عليه أولى .

وقصارى ذلك - إنهم يؤدونه ما أوجبه الله عليهم بأصل الشرع ، وبما أوجبوه على أنفسهم بالنذر .

(٢) (ويخافون يوما كان شره مستطيرا) أى ويتركون المحرمات التى نهى الله عنهم عنها خيفة سوء الحساب يوم المعاد ، حين يستطير العذاب ويفشو بين الناس إلا من رحم الله .

(٣) (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيا وأسيرا) أى ويطعمون الطعام وهم فى محبة له وشفق به - المسكين العاجز عن الاكتساب ، واليتيم : الذى مات كاسبه ، والأسير : المأخوذ من قومه ، المملوكة رقبته ، الذى لا يملك لنفسه قوة ولا حيلة .

والمراد من إطعام الطعام الإحسان إلى المحتاجين ومواساتهم بأى وجه كان ، وإنما خص الطعام لكونه أشرف أنواع الإحسان ، لاجرم أن عبر به عن جميع وجوه المنافع .

ونحو الآية قوله : « فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكَّ رِجْلَهُ . أَوْ إِطْعَمَ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ . يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ . أَوْ مَسْكِيناً ذَا مَقْرَبَةٍ » .
وقد وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإحسان إلى الأرقاء حتى كان آخر ما أوصى به أن جعل يقول : « الصلاة وما ملكت أيمانكم » .

وبعد أن ذكر أن الأبرار يحسنون إلى هؤلاء المحتاجين - بين أن لهم فى ذلك غرضين :

(١) رضا الله عنهم ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(إنما تطعمكم لوجه الله) فلا تمنّ عليكم ولا تتوقع منكم مكافأة ولا غيرها مما ينقص الأجر ، وقد كانت عائشة رضى الله عنها تبعث الصدقة إلى أهل بيت من البيوت ثم تسأل المبعوث ، فإن ذكر دعاء دعت بمثله ليبقى ثواب الصدقة لها خالصا عند الله . ثم أكد هذا ووضحه بقوله :

(لا تريد منكم جزاء ولا شكورا) أى لا تطلب منكم مجازاة تكافئونها بها ،

ولأن تشكرونا لدى الناس ؛ قال مجاهد وسعيد بن جبير : أما والله ما قالوه بألسنتهم ولكن علم الله به من قلوبهم فأثني عليهم به ، ليرغب في ذلك راغب .
(٢) خوف يوم القيامة ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً) أى إنا نفعل ذلك ليرحمنا ربنا ويتلقانا بلطفه في ذلك اليوم العبوس القمطيرير .
وبعد أن حكى عنهم أنهم أتوا بالطاعة لغرضين : طلب رضا الله ، والخوف من يوم القيامة - بين أنه أعطاهم الغرضين فأشار إلى الثانى بقوله :
(فوقاهم الله شر ذلك اليوم) أى فدفع الله عنهم ما كانوا في الدنيا يجذرون من شر ذلك اليوم العبوس بما كانوا يعملون مما رضى ربهم عنهم .
وأشار إلى الأول بقوله :

(ولقاهم نضرة وسرورا) أى وأعطاهم نضرة في وجوههم وسرورا في قلوبهم ونحو الآية قوله : « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ . »
وقد جرت العادة أن القلب إذا سر استنار الوجه ، قال كعب بن مالك : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه كأنه فلقه قمر ، وقالت عائشة رضى الله عنها : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم مسرورا تبرق أسارير وجهه - الحديث .

(وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا) أى وجزاهم بصبرهم على الإيثار وما يؤدى إليه من الجوع والعرى يستانا فيه ما كولهنى ، وحريرا منه ملبس بهى ، ونحو الآية قوله : « وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ »

مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣)
وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَقْطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ

بِأَنبِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا (١٥) قَوَارِيرٍ مِنْ فِضَّةٍ
 قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (١٧)
 عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا
 رَأَوْهُمْ حَسِبَتْهُمُ لُؤْلُؤًا مَمْنُونًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا
 كَبِيرًا (٢٠) عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ، وَحُلُوعًا أُسَاوِرٌ مِنْ
 فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً
 وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (٢٢)

شرح المفردات

الأرائك : واحدها أريكة ، وهو السريز في الحجلة (الناموسية) والزمهرير :
 البرد الشديد ، دانية : أى قريبة ، ظلالها : أى ظلال أشجارها ، وذلت : أى
 سخرت ثمارها وسهل أخذها وتناولها ، والقطوف : الثمار ، واحداها قطف (بكسر
 اللام) وآنية : واحداها إناء ، وهو ما يوضع فيه الشراب ، والأكواب : واحداها
 كوب ، وهو كوز لا عروة له ، والقوارير : واحدها قارورة ، وهى إناء رقيق من الزجاج ،
 قدروها تقديرا : أى قدرها السقاة على قدرى شاربها ، كأسا : أى خمر ،
 والزنجبيل : نبت فى أرض عمان وهو عروق تسمى فى الأرض وليس بشجر ، ومنه
 ما يأتى من بلاد الزنج والذين وهو الأجود ، قاله أبو حنيفة الدينورى ، وكانت العرب
 تحبه فى الشراب ، لأنه يحدث لذعا فى اللسان إذا مزج بالشراب ، قال الأعشى :

كَانَ الْقَرَنُفُلُ وَالزَّجْبَيْلُ بَاتَانِ فِيهَا وَأَرْيَا مَشُورَا

والسلسبيل : الشراب اللذيذ ، تقول العرب : هذا شراب سلسل وسلسل وسلسبيل :
 أى طيب الطعم لذیذ ، وتسلسل الماء فى الحلق : جرى ، مخلدون : أى دائمون على

البهاء والحسن لايهرمون ولا يتغيرون ، ثم : أى هناك ، والسندس : بارق من
الديباج ، والإستبرق : ما غاظ منه ، والأساور : واحدها سوار .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر طعام أهل الجنة ولباسهم - أردفه وصف مساكنهم ، ثم وصف
شربهم وأوانيهم وسقائهم ، ثم أعاد الكلام مرة أخرى بذكر ما تفضل به عليهم من
فاخر اللباس والحلى ، ثم ألمح إلى أن هذا كان جزاء لهم على ما عملوا ، وما زكوا به
أنفسهم من جميل الخصال ، وبديع الخلال .

الإيضاح

(متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهرياً) أى متكئين فى الجنة
على السرر فى الحجال ، ليس لديهم حرٌّ مزعج ولا برد مؤلم ، بل جوٌّ واحد معتدل
دائم سرمدى ، فهم لا يبيغون عنها حولا .
والخلاصة - إنهم لا يرون فى الجنة حر الشمس ، ولا برد الزمهرير ، ومنه
قول الأعشى :

منعمة طفلة كالمها لم تر شمساً ولا زمهرياً

وفى الحديث : « هواء الجنة سَجَسَجٍ لا حرٌّ ولا قُرٌّ » .

(ودانية عليهم ظلها) أى إن ظلال أشجار الجنة قريبة من الأبرار ، مظلة
عليهم زيادة فى نعيمهم .

(وذلك قطفها تذيلاً) أى سخرت للقائم والقاعد والتكئ ، قال مجاهد :
إن قام ارتفعت منه بقدر ، وإن قعد تدأت له حتى ينفالها ، وكذلك إذا اضطجع ،
لا يردُّ اليد عنها بُعد ولا شوك .

وعن البراء بن عازب قال : إن أهل الجنة يأكلون من ثمار الجنة قياما وقعودا ومضطجعين وعلى أى حال شاءوا .

وبعد أن وصف طعامهم ولباسهم ومسكنهم - وصف شرابهم وأوانيهم فقال :
(ويطاف عليهم بأنية من فضة وأكواب كانت قواريرا . قوارير من فضة قدروها تقديرا) أى يدير عليهم خدمهم كؤوس الشراب والأكواب من الفضة . وقد تكونت وهى جامعة لصفاء الزجاجه وشفيفها ، وبياض الفضة ولينها ، وقد قدرها لهم السقاة الذين يطوفون عليهم لسقيا على قدر كفايتهم وريتهم ، وذلك ألذ لهم وأخف عليهم ، فهى ليست بالملأى التى تفيض ، ولا بالناقصة التى تفيض .
والخلاصة - إن آنية أهل الجنة من فضة بيضاء فى صفاء الزجاج ، فىرى ما فى باطنها من ظاهرها .

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه قال : « ليس فى الجنة شئ إلا قد أعطيتم فى الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة » . ولا منافاة بين كون الأواني من الفضة ، وبين كونها من الذهب كما ذكر فى قوله : « يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ » لأنهم تارة يُسَقُونَ بهذه ، وتارة يسقون بتلك .

وبعد أن وصف أواني مشروبهم وصف المشروب نفسه فقال :
(ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا) أى ويسقى الأبرار فى الجنة خمر مزوجة بالزنجبيل ، وقد كانوا يحبون ذلك ويستطيبونه ، كما قال المسيب بن علس يصف رُضاب امرأة :

وكان طعم الزنجبيل به إذ ذقته وسلافة الخمر

(عينا فيها تسمى سلسبيلا) أى ويسقون من عين فى الجنة غاية فى السلاسة وسهولة الألتداد فى الخلق ، قال ابن الأعرابى : لم أسمع السلسبيل إلا فى القرآن ، وكان العين إنما سميت بذلك لسلاستها وسهولة مساعها اه ، ومنه قول حسان بن ثابت :

يسقون من ورد البَرِيصَ عليهم كأسا يُصَقُّ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ

وقال مقاتل : هو عين يتسلسل عليهم ماؤها في مجالسهم كيف يشاءوا .
وهذا كله ما هو إلا أسماء لما هو شبيه بما في الدنيا ، وهناك ما لا عين رأت ،
ولا أذن سمعت ، فالعاني غير ما نعهد ، والألفاظ مجرد تخيل شيء مما نراه كما قال
ابن عباس :

ثم ذكر أوصاف السقاة الذين يسقونهم ذلك الشراب فقال :
(ويطوف عليهم ولدان مخلدون) أى يطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان من
ولدان الجنة يأتون على ما هم عليه : من الشباب والطراوة والنضارة ، لا يهرمون
ولا يتغيرون ولا تضعف أجسامهم عن الخدمة .

(إذا رأيتهم حسبتهم أولوا منثورا) أى إذا رأيت هؤلاء الولدان خلتهم
لحسن ألوانهم ، ونضارة وجوههم وانتشارهم فى قضاء حوائج ساداتهم - كأنهم اللؤلؤ
المنثور « واللؤلؤ المنثور أجمل فى النظر من اللؤلؤ المنظوم » ولأنهم إذا كانوا كذلك
كانوا سراعا فى الخدمة .

وعن اللأمون أنه قال ليلة رُفَّت إليه بُورَان بنت الحسن بن سهل ، وهو على
بساط منسوج من الذهب ، وقد نثرت عليه نساء دار الخلافة اللؤلؤ ، ونظر إليه
فاستحسن ذلك المنظر : لله درُّ أبى نواس كأنه أبصر هذا حيث قال :
كَأَنَّ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ قَوَاعِمِهَا حِصْبَاءُ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

ولما ذكر نعيم أهل الجنة بما تقدم ذكر أن هناك أمورا أعلى وأعظم من
ذلك فقال :

(وإذا رأيت ثم رأيت نعيما ومُلْكًا كبيرًا) أى وإذا نظرت فى الجنة رأيت
نعيمًا عظيمًا ومُلْكًا كبيرًا لا يحيط به الوصف .
وقد اختلفوا فى المراد من هذا الملْك الكبير ، فقيل إن أدانهم منزلة من ينظر

ملكه فى مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أذناه ، وقيل هو استئذان اللاتكة عليهم ، فلا يدخلون إلا بإذنهم ، وقيل هو الملك الدائم الذى لازوال له . ولم يحىء فى الأخبار الصحيحة ما يفسر هذا الملك الكبير، فأولى بنا أن نؤمن به ونترك تفصيله إلى علام الغيوب .

وبعد أن وصف شرابهم وأنيته وما هم فيه من النعيم ، وصف ملابسهم فقال : (عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق) أى إن لباس أهل الجنة فى الجنة الخضر ، ومنه سندس ، وهو رفيع الديباج للقمصان والغلائل ونحوها مما يلبى أبدانهم ، وإستبرق : وهو غليظ الديباج لامعه مما يلبى الظاهر كما هو المهود فى لباس الدنيا .

وبعدئذ ذكر حلبيهم فقال :

(وحلوا أساور من فضة) أى وقد حلوا أساور من فضة ، وجاء هنا « مِنْ فِضَّةٍ » وفى سورة فاطر « وَيَحْلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ » لأنهم قد يجمعون بينهما ، أو يلبسون الذهب تارة والفضة أخرى .

وقال سعيد بن المسيب : لأحد من أهل الجنة إلا وفى يده ثلاثة أسورة ؛ واحدة من ذهب ، وأخرى من فضة ، وثالثة من لؤلؤ .

والتحلى مما يختلف باختلاف العادات والطبائع ، ونشأة الآخرة غير هذه النشأة ، ومن المشاهد فى الدنيا أن بعض الملوك يتحلون بأعضادهم وعلى تيجانهم وعلى صدورهم ببعض أنواع الخلى ، ولا يرون فى ذلك بأساً لمكان الإلف والعادة ؛ فلا يبعد أن يكون من طباع أهل الجنة فى الجنة حب التحلى دائماً .

ثم ذكر أنهم يسقون شراباً آخر يفوق النوعين السابقين ، وهما ما يمزج بالكافور وما يمزج بالزنجبيل فقال :

(وسقاهم ربهم شراباً طهوراً) أى وسقاهم ربهم غير ما سلف شراباً يطهر شرابه من الليل إلى اللذات الحسية ، والركون إلى مأسوى الحق ، فيتجرد لمطالعة جماله ، والتلذذ ببقائه ، وهذا منتهى درجات الصديقين .

قال أبو قلابة : يؤتون بالطعام والشراب ، فإذا كان في آخر ذلك أتوا بالشراب الطهور ، فيشربون فتطهر بذلك بطونهم ، ويفيض عرق من جلودهم مثل ريح المسك .

ولم يذكر الكتاب ما يبين نوع ذلك الشراب ، فلندع أمره إلى الله ونؤمن به كما أخبر به في كتابه .

وبعد أن شرح أحوال السعداء وما يلقونه من وافر النعيم الذي يتجلى في مشربهم وملبسهم ومسكنهم ؛ بين أن هذا جزاء لهم على ما قدموا من صالح الأعمال ، ومازكوا به أنفسهم من صفات الكمال فقال :

(إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً) أي ويقال لهؤلاء الأبرار حينئذ : إن هذا الذي أعطيناكم من الكرامة كان لكم ثواباً على ما كنتم تعملون من الصالحات ، وكان عملكم فيها مشكوراً ، حمدكم عليه ربكم ورضيه لكم ، فأنا بكم بما أتاكم به من الكرامة .

والغرض من ذكر هذا القول لهم زيادة سرورهم ، فإنه إذا قيل للمعاقب : هذا بعملك الردىء ازداد غمه وألم قلبه ، وإذا قيل للمتأب : هذا بطاعتك وعملك الحسن ، ازداد سروره وكان تهنئة له :

ونحو الآية قوله : « كَلُوا وَامْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ » وقوله : « وَتُؤَدُّوا أَنْ تَلِكُمْ الْجَنَّةُ أَوْ تَشْمُوَهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ
وَلَا تُطِيعْ مِنْهُمْ أَمَّا أَوْ كَفُورًا (٢٤) وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً
وَأَصِيلًا (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢٦)

إِنَّ هُوَ لِأَسْرَهُمْ مُجِيبُونَ الْمَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٦) نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ
 وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨) إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ
 فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ
 اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ
 لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١)

شرح المفردات

نزلنا عليك القرآن تنزيلا : أى أنزلناه عليك مفردا منفجا ، حكم ربك : هو
 أخير نصرك على الكفار إلى حين ، والآثم : هو الفاجر الجاهر بالمعاصى ، والكفور :
 هو المشرك الجاهر بكفره ، بكرة وأصيلا : أى أول النهار وآخره ، والمراد بذلك
 جميع الأوقات ، أسجد : أى صل ، سبجه : أى تهجد ، وراءهم : أى أمامهم ،
 شددنا أسرهم : أى أحكنا ربط مفاصلهم بالأعصاب والعروق ، بدلنا أمثالهم : أى
 أهلكتناهم وبدلنا أمثالهم فى شدة الخلق .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أحوال الآخرة وبين عذاب الكفار على سبيل الاختصار
 وثواب المطيعين على سبيل الاستقصاء ، إرشادا لنا إلى أن جانب الرحمة مقدم على
 جانب العقاب — أردف ذلك ذكر أحوال الدنيا ، وقدم أحوال الطيعين ، وهم
 الرسول صلى الله عليه وسلم وأمه على أحوال المتبردين والمشركين :

وقبل الخوض فيما يتعلق بالرسول من الأمر والنهى أمره بالصبر على ما يناله من
 أذى قومه إرالة لوحشته ، وتقوية لقلبه ، حتى يتم فراغ قلبه ، ويستغل بطاعة ربه ،
 وهو على أتم ما يكون سرورا ونشاطا .

الإيضاح

(إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً) أى إنا أنزلنا عليك القرآن مفرداً منجماً في مدى ثلاث وعشرين سنة ؛ ليكون أسهل لحفظه وتفهمه ودراسته ، ولتكون الأحكام آتية وفق الحوادث التي تجدد في الكون ، فتكون تثبيتاً لإيمان المؤمنين ، وزيادة في تقوى المتقين .

وقد يكون المعنى : نزلنا عليك ولم تأت به من عندك كما يدعيه المشركون؛ ويراد من ذلك تثبيت قلب رسوله صلى الله عليه وسلم وشرح صدره ، وأن الذي أنزل عليه وحى لا كهانة ولا سحر ، وبذا تزول الوحشة من قول الكفار: إنه كهانة أو سحر . (فاصبر لحكم ربك) أى فاصبر لما ابتلاك به ربك وامتنحك به من تأخير نصرك على المشركين ، ومقاساة الشدائد في تبليغ رسالته ووحيه الذي أنزله عليك ، فإن لذلك عاقبة حميدة ، وغاية يُشأج لها فؤادك .

(ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً) أى ولا تطع كلا من مرتكب الإثم والمتجاوز الحد في الكفر ، فإذا قال لك الآثم كعتبة بن ربيعة : اترك الصلاة وأنا أزوجهك ابنتي وأسوقها إليك بلا مهر ، أو قال لك الكفور الوليد بن المغيرة : أنا أعطيتك من المال حتى ترضى إذا رجعت عن هذا الأمر ، فلا تطع واحداً منهما ولا من غيرها ، فقد أعددت لك النصر في الدنيا ، والجنة في الآخرة .

وقصارى ذلك — لا تتبع أحداً من الآثمين إذا دعاك إلى الإثم ، ولا من الكافرين إذا دعاك إلى الكفر، وهذا ما يفهم من قولك : لا تطع الظالم — من أن المعنى — لا تتبعه في الظلم إذا دعاك إليه .

ونبيه صلى الله عليه وسلم عن طاعة الآثم والكفور وهو لا يطيع واحداً منهما ، إشارة إلى أن الناس محتاجون إلى مواصلة الإرشاد ، لما ركب في طباعهم من الشهوة الداعية إلى اجتراح الشيات ، وأن أحداً لو استغنى عن توفيق الله وإرشاده لكان

أحق الناس بذلك هو الرسول المعصوم ؛ ومن ثم وجب على كل مسلم أن يرغب إلى الله ويتضرع إليه في أن يصونه عن اتباع الشهوات ، وبمعصمه عن ارتكاب المحرمات ، لينجو من الآفات ، ويسلم من الزلات ، ليلقى ربه أبيض الصحائف من السيئات .

(واذ كر اسم ربك بكثرة وأصيلا) أى ودم على ذكره في جميع الأوقات بقلبك ولسانك .

(ومن الليل فاسجد له) أى وصل بعض الليل كصلاة المغرب والعشاء .

(وسبحه ليلا طويلا) أى وتهجد له طائفة من الليل ، ومحو هذا ما جاء في قوله :

« وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ بِحَمْدِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا »
وقوله : « يَا أَيُّهَا الْمُرْتَلُّ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا . نَصْفَهُ أَوْ اقْصِنْ مِنْهُ قَلِيلًا . أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا » .

ثم قال منكراً على الكفار وأشباههم حب الدنيا والإقبال عليها ، وترك الآخرة وراءهم ظهرياً .

(إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً) أى إن هؤلاء المشركين

بالله يحبون الدنيا وتعجبهم زياتها ، وبينهم كون في لذاتها الفانية ، ويدعون خاف ظهورهم العمل لليوم الآخر وما لهم فيه النجاة من أهواله وشدائده .

والخلاصة — لا تطع الكافرين واشتغل بالعبادة ، لأن هؤلاء تركوا الآخرة

للدنيا ، فترك أنت الدنيا وأهلها للآخرة .

ثم نعى عليهم تركهم للعبادة ، وغفلتهم عن طاعة بارئهم وموجدهم من

العدم فقال :

(نحن خلقناهم وشددنا أسرهم) أى كيف يغفلون عنا ونحن الذين خلقناهم ،

وأحكامنا ربط مفاصلهم بالمروق والأعصاب ، أفبعد هذا نتركهم سدئى ؟ .

ثم توعدهم وهددهم فقال :

(وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً) أى وإذا شئنا أهلكتناهم وأتينا بأشباههم

فجعلناهم بدلاً منهم .

ونحو الآية قوله : « إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ

اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا » وقوله : « إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ، وَمَا ذَلِكَ

عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ » وقوله « عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ » .

وقد جرت سنة الله بأن يرسل مالا يصلح للرقى من خلقه ، فهو يهلك هؤلاء

ويبدل أمثالهم فيجعلهم مكانهم ، كما هي قاعدة بقاء الصلاح والأصلح ، وإهلاك

مالا يصلح للبقاء .

وبعد أن ذكر أحوال السعداء والأشقياء أرشد إلى أن فى هذا الذكر تذكرة

وموعظة للخلق ، وفوائد جملة لمن ألقى سمعه ، وأحضر قلبه ، وكانت نفسه مقبلة على

ما ألقى إليه سمعه ، فقال :

(إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً) أى إن هذه السورة بما فيها

من ترتيب بدیع ، ونسق عجيب ، ووعد ووعيد ، وترغيب وترهيب ، تذكرة

للعاملين ، وتبصرة للمستبصرين ، فمن شاء الخير لنفسه فى الدنيا والآخرة ، فليتقرب

إلى ربه بالطاعة ، ويتبع ما أمره به ، وينته عما نهاه عنه ، ليحظى بثوابه ، ويتعمد

عن عقابه .

(وماتشؤون إلا أن يشاء الله) أى ومانشؤون اتخذ السبيل الموصلة إلى النجاة

ولا تقدرون على تحصيلها إلا إذا وفقكم الله لاكتسابها ، وأعدكم لنيلها ، إذ لا دخل

لمشيئة العبد إلا فى الكسب ، وإنما التأثير والخلق لمشيئة الله عز وجل ، فمشيئة

العبد وحدها لا تأتى بخير ، ولا تدفع شراً ، وإن كان يثاب على المشيئة الصالحة ،

ويؤجر على قصد الخير كما فى حديث : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل

امرى ما نوى » .

(إن الله كان عليماً حكيماً) أى إن الله عليم بمن يستحق الهداية فيبسرّها له ،
ويقيض له أسبابها ، ومن هو أهل للتبوية ، فيصرفه عن الهدى ، وله الحكمة البالغة
والحجة الدامغة .

(يدخل من يشاء في رحمته) فيهديه ويوفقه للطاعة بحسب استعداده .
(والظالمين أعدّ لهم عذاباً أليماً) أى والذين ظلموا أنفسهم فأتوا على شركهم ،
أعدّ لهم فى الآخرة عذاباً مؤلماً موجعاً ، هو عذاب جهنم وبئس المصير .
نسأل الله أن يجعلنا من الأبرار ، والمقربين الأخيار ، ويجعل سعينا مشكوراً لديه .

ما تضمنته السورة من المقاصد

اشتملت هذه السورة الكريمة على أربعة مقاصد :

- (١) خلق الإنسان .
- (٢) جزاء الشاكرين والجاحدين .
- (٣) وصف الجنة والنار .
- (٤) أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر وذكر الله والتهجد بالليل .

سورة المرسلات

هي مكية إلا آية : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ » فمدنية .

وعدد آياتها خمسون ، نزلت بعد سورة الهمزة .

ومناسبتها لما قبلها — أنه هنا أقسم على تحقيق ما تضمنته السورة قبلها من وعيد

الفجار ، ووعد المؤمنين الأبرار .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ

نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا (٤) فَالْمَلَقِيَّاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦)

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٍ (٧) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩)

وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّفَتْ (١٠) وَإِذَا الرَّسُلُ أُنْقِطَتْ (١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ؟ (١٢)

لِيَوْمِ الْفَضْلِ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَضْلِ؟ (١٤) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ

لِلْمُكَذِّبِينَ (١٥) .

شرح المفردات

المرسلات : هم الملائكة الذين أرسلهم الله لإيصال النعمة إلى قوم ، والنقمة إلى

آخرين ، عُرْفًا : أى للمعروف والإحسان ، والعاصفات : أى المبعثات للباطل كما

تبعد العواصف التراب والتبين والهباء ، والناشرات : أى الناشرات لأجنحتهن عند

نزولهن إلى الأرض ، والفارقات فرقا : أى الفارقات بين الحق والباطل ، فالملقىات

ذِكْرًا : أى فالملقىات العلم والحكمة إلى الأنبياء ، عذراً أو نذراً : أى للإعذار والإنذار ،

من قولهم : عذره إذا أزال الإساءة ، وأنذر إذا خوَّف ، طمست : أى محقت وذهب نورها ، فرجت : أى فتحت وشقت ، نسفت : أى اقتلعت من أما كتبها بسرعة من قولهم : انتسفت الشيء إذا اختلطته ، أقتت : أى عين لها الوقت الذى تحضر فيه للشهادة على أممها ، أجلت : أى أخرت وأمهلت ، الفصل : أى الفصل بين الخلائق بأعمالهم : إما إلى الجنة ، وإما إلى النار ، ويل : أى عذاب وخزى .

المعنى الجملى

أقسم سبحانه بطوائف من الملائكة ، منهم المرسلون إلى الأنبياء بالإحسان والمعروف ليبلغوه للناس ، ومنهم الذين يعصفون ماسوى الحق ويبعدونه كما تبعد العواصف التراب وغيره ، ومنهم الذين ينشرون آثار رحمة في النفوس الحية ، ومنهم الذين يفرقون بين الحق والباطل ، ومنهم الملقون العلم والحكمة للإعذار والإنذار من الله — إن يوم القيامة لا ريب فيه ، وحين تمحق أنوار النجوم ، وتشقق السماء ، وتنسف الجبال ، ويعين للرسل الوقت الذى يشهدون فيه على أممهم ، ويفصل بين الخلائق إبان العرض والحساب يكون الخزى والعذاب للكافرين المكذبين .

الإيضاح

(والمرسلات عرفا) أى أقسم بملائكتى الذين أرسلتهم بالإحسان والمعروف ، ليبلغوه أنبيأى ورسلى .

(فالعاصفات عصفا) أى فالملائكة المبعدين للباطل بسرعة كما تعصف الريح التراب والهباء .

(والناشرات نشرا) أى والملائكة الذين ينشرون آثارهم فى الأمم والنفوس الحية .

(فالفارقات فرقا) أى فالملائكة النازلين بأمر الله للفرق بين الحق والباطل ،
والهدى والغى .

(فالملقىات ذكراً . عذراً أو نذراً) أى فالملائكة الملقىات إلى الرسل وخياً فيه
إعذار إلى الخلق ، وإنداز لهم بعقاب الله إن هم خالفوا أمره .

(إن ماتوعدن لواقع) أى أقسم بهذه الأقسام إن مارُعدتم به من قيام الساعة
لكائن لا محالة .

(فإذا النجوم طمست) أى فإذا ذهب ضوء النجوم ، ونحو الآية قوله : « وَإِذَا
النُّجُومُ انْكَدَرَتْ » .

(وإذا السماء فُرِجَتْ) أى وإذا السماء انفطرت وتشققت ، وهذا كقوله :
« وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا » وقوله : « إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ » وقوله : « وَيَوْمَ
تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ » .

(وإذا الجبال نسفت) أى وإذا الجبال فرقتها الرياح ، فلم يبق لها عين ولا أثر ،
وهذا كقوله : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا » .

(وإذا الرسل أُفَّتْ) أى وإذا جعل للرسل وقت للفصل والقضاء بينهم وبين
الأمم ، وهذا كقوله : « يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ » .

(لأى يوم أُجِّلْت؟) أى ويقال حينئذ : لأى يوم أخرت الأمور المتعلقة بالرسل
من تعذيب الكفار وإهانتهم ، وتنعيم المؤمنين ورعايتهم ، وظهور ما كانت الرسل
تذكره من أمور الآخرة وأحوالها ، وفضاعة أحوالها .

والمراد بهذا تهويل أمر هذا اليوم وتعظيم شأنه ؛ كأنه قيل : أى يوم هذا الذى
أُجِّلَ اجتماع الرسل إليه ؟ إنه ليوم عظيم .

ثم بين ذلك اليوم فقال :

(ليوم الفصل) أى ليوم يفصل الله فيه بين الخلائق ، وهو اليوم الذى أجل اجتماع الرسل له .

(وما أدراك ما يوم الفصل ؟) أى وما أعلمك بيوم الفصل وشدته وعظيم أهواله؟

ثم صرح بالمراد وأبان من سيقع عليهم النكال والوبال حينئذ فقال :

(ويل يومئذ للكاذبين) أى عذاب وخزى لمن كذب بالله ورسله وكتبه

وبكل ماورد على السنة أنبيائه وأخبروا به .

أَلَمْ يُهْلِكِ الْأُولِينَ (١٦) ثُمَّ نُنَبِّئُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧) كَذَلِكَ تَفْعَلُ

بِالْجَارِمِينَ (١٨) وَيَلُوكُ يَوْمَئِذٍ الْمُكَذِّبِينَ (١٩) أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ

مَاءٍ مَهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢)

فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) وَيَلُوكُ يَوْمَئِذٍ الْمُكَذِّبِينَ (٢٤) أَلَمْ نَجْعَلِ

الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيَّ شَاخِحَاتٍ

وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا (٢٧) وَيَلُوكُ يَوْمَئِذٍ الْمُكَذِّبِينَ (٢٨)

شرح المفردات

من ماء مهين : أى من نطفة قدرة حقيرة ، فى قرار مكين : أى فى الرحم ،

إلى قدر معلوم : أى إلى مقدار معين من الوقت عند الله ، قدرنا : أى على خلقه

وتصوره كيف شئنا ، والكفات : ما يكفت ، أى يضم ويجمع ، من كفت الشئ :

إذا ضمه وجمعه ، وأنشد سدويته :

كرام حين تنكفت الأفاعى إلى أبحارهن من الصقيع

رواسى : أى جبالا ثوابت ، شاخحات : أى مرتفعات ، فراتا : أى عذبا .

المعنى الجملى

بعد أن حذر الكافرين وخوفهم بأن يوم الفصل كائن لا محالة ، وأقسم لهم بملائكته المقربين ورسوله الطاهرين بأنه يوم سيكون، وأن فيه من الأهوال ما لا يدرك كنهه إلا علام الغيوب — أردف ذلك بتخويفهم بأنه أهلك الكفار قبلهم بكفرهم فإذا سلكتم سبيلهم فستكون عاقبتكم كعاقبتهم ، وستعذبون في الدنيا والآخرة ، ثم أعقبه بتخويفهم بنكران إحسانه إليهم ، فإنه قد خلقهم من ماء مهين في قرار مكين إلى زمن معلوم ، ثم أنشأهم خلقاً آخر ، وجعل لهم السمع والأبصار والأعضاء ، ليذكروا نعم الله عليهم ، فسكروا بها وأنكروا وحدانيته وعبدوا الأصنام والأوثان ، ثم ذكروهم بنعمه في الآفاق ؛ إذ خلق لهم الأرض وجعلها تضمهم أحياء وأمواتا ، وجعل فيها الجبال لثلاثيم بهم وجعل فيها الأنهار والعيون ، ليشربوا منها ماء عذبا زلالاً ، فويل لمن كفر بهذه النعم العظام .

الإيضاح

(ألم نهلك الأولين؟) أى ألم نهلك من كذب الرسل قبلكم ، ونعذبهم في الدنيا بشتى أنواع العذاب ، فتارة بالغرق كما حدث لقوم نوح ، وأخرى بالزوال كما كان لقوم لوط إلى أشباه ذلك من المثلاث التى حلت بالأمم قبلكم ، جزاء لهم على قبيح أعمالهم وسيء أفعالهم ، وإن سنننا في المكذبين لاتبدل فيها ولا تغيير ، فأحذروا أن يحل بكم مثل ما حل بهم ، وتندموا ، ولات ساعة مندم .

(ثم نتبعهم الآخريين) أى ثم نحن نفعل بأمثالهم من الآخريين ، ونسلك بهم سبيلهم لأنهم فعلوا مثل أفعالهم .

وفي هذا من شديد الوعيد لأهل مكة ما لا يخفى .

ثم ذكر الحكمة فى إلحاقهم بهم فقال :

(كذلك نعمل بالمجرمين) أى إن سنتنا فى جميع المجرمين واحدة ، فكما أهلكنا المتقدمين لإجرامهم وتكذيبهم — نعمل بالمأخرين الذين حدوا حدوهم ، واستنوا سنتهم ، فسنتنا تجري على وتيرة واحدة .

(ويل يومئذ للمكذبين) أى هؤلاء وإن عذبوا فى الدنيا بأنواع من العذاب ، فالطامة الكبرى معدة لهم يوم القيامة ، والتكرير للتوكيد شائع فى كلام العرب كما تقدم فى سورة الرحمن .

وقال القرطبي : كسر الويل فى هذه السورة عند كل آية لمن كذب بشيء ، لأنه قسمه بينهم على قدر تكذيبهم ، فجعل لكل مكذب بشيء عذابا سوى عذابه بتكذيب شيء آخر اهـ .

ثم ذكرهم بجزيل نعمه عليهم فى خلقهم وإيجادهم مما يستدعى جزيل شكرانهم فقال :

(ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين . إلى قدر معلوم . فقدرنا فنعم القادرون ؟) أى ألا تعترفون بأنكم خلقتم من نقطة مذرة منقنة وضعت فى الأرحام إلى حين الولادة ، ونحن قد قدرنا ذلك فنعم المقدرين ، إذ خلقناكم فى أحسن الصور والميئات — أفلا يستحق ذلك الخالق منكم الشكران لا الكفران والاعتراف بوحديته وإرساله للرسول والإقرار بالبعث ؟ لكنكم كفرتم أنعمه ، ونكلمتم عن الاعتراف بوحديته ، وعبدتم الأصنام والأوثان ، وأنكرتم يوم الفصل والجزاء ، فسترون فى هذا اليوم عاقبة ما اجترحتم .

(ويل يومئذ للمكذبين) أى خزي وعذاب لمن كذب بهذه المن العوالى .

وبعد أن ذكرهم بالنعم التى أنعم بها عليهم فى الأنفس — ذكرهم بما أنعم عليهم فى الآفاق ، وأرشد إلى أمور ثلاثة :

(١) (ألم نجعل الأرض كفاتا . أحياء وأمواتا ؟) أى ألم نجعل الأرض مهاداً
لكم ، فتكفتم وتجمعكم فيها أحياء على ظهرها ، وأمواتا فى بطنها ، فالأحياء يسكنون
فى منازلهم ، والأموات يدفنون فى قبورهم .

خرج الشعبي فى جنازة فنظر إلى الجبان فقال : هذه كفات الأموات ، ثم نظر
إلى البيوت فقال : هذه كفات الأحياء .

وكانوا يسمون ببيع العرقد (مقبرة المدينة) كفتة لأنه مقبرة تضم الموتى .

(٢) (وجعلنا فيها رواسى شامخات) أى وجعلنا جبلا ثوابت عاليات على
ظهرها ، لئلا تميد بكم .

وهذه الجبال متصلة بالطبقة الصوانية التى هى أبعد طبقات الأرض عن سطحها
وتلك الطبقة تضم فى جوفها كرة النار المشتعلة التى فى باطنها ، وظهرها هذه القشرة
التي نحن عليها .

(٣) (وأسقينكم ماء فراتا) أى وأسقينكم ماء عذبا فراتا تشربون منه ،
إما آتيا من السحاب الذى حفظته الجبال بارتفاعها ، وإما من العيون النابتة منه
وعدها الثلج الذى يذوب شيئا فشيئا فوق ظهر الأرض متنزلا إلى بطنها ، متجها إلى
عيونها الجارية .

(ويل يومئذ للمكذبين) أى عذاب عظيم فى الآخرة لمن كفر بهذه النعم .

انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون (٢٩) انطلقوا إلى ظل
ذى ثلاث شعب (٣٠) لا ظليل ولا يُعنى من اللهب (٣١) إنها ترعى
بشرى كالقصر (٣٢) كأنه جمالة صفر (٣٣) ويل يومئذ المكذبين (٣٤)
هذا يوم لا ينطقون (٣٥) ولا يؤذن لهم فيعتذرون (٣٦) ويل يومئذ

لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هَذَا يَوْمُ الْفُضْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِنْ كَانَ
لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا (٣٩) وَيَلَّيْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠).

شرح المفردات

لاظليل : أى لا يلقى من حر الشمس ، والشرر : ما يتطاير من النار ، كالتقصير :
أى كالدار الكبيرة المشيدة ، جمالة : واحدها جمل ، فكيدون : أى فاحتالوا على ؛
يقال : كدت فلانا إذا احتلت عليه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن للمكذبين بالله وأنبيائه . واليوم الآخر العذاب فى يوم الفصل
والجزاء — بين هنا نوع ذلك العذاب بما يحار فيه أولو الألباب ، ويخرّ من هوله
كل مُحِبِّ أَوْابٍ ، فأخبر بأنهم يؤمرون بالانطلاق إلى ما كانوا يكذبون به
فى الدنيا ، إلى ظلِّ دخان جهنم المشعب لكثرتة وتفرقة إلى ثلاث شعب عظيمة ،
وهو لا يظلمهم ولا يمنع عنهم حر اللهب المتكوّن من نار ترمى بشرر ، كأنه التقصر
المشيد علواً وارتفاعاً ، وكأنه الجمال الصقر انبساطاً وتفرقا عن غير أعداد محصورة ،
وحرارة غير معينة .

ولا شك أن هذا تشبيه على ما تعهده العرب إذا وصفت الأشياء بالعظم ، ألا
تراهم يشبهون الناقة العظيمة بالتقصير كما قال :

فوقفت فيها ناقتى وكأنها فدن لأقضى حاجة المتلوم

ثم أخبر بأن الويل للمكذبين بهذا اليوم ، يوم لا ينطقون من شدة الدهشة
والحيرة ، ولا يؤذن لهم فى الاعتذار فيعتذرون ، يوم يجمع الله الأولين والآخرين

في صعيد واحد ، ويقال لهم على سبيل التأنيب والتقريع : إن كنتم تستطيعون أن تدفعوا عن أنفسكم شيئا من العذاب فهلتوا .

الإيضاح

(انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون) أى يقول لهم خزنة جهنم حينئذ : اذهبوا إلى ما كنتم تكذبون به من العذاب في الدنيا . ثم بين هذا العذاب ووصفه بجملة صفات :

(١) (انطلقوا إلى ظلّ ذى ثلاث شعب) أى انطلقوا إلى ظل دخان جهنم المشعب إلى ثلاث شعب : شعبة عن يمينهم ، وشعبة عن شمالهم ، وشعبة من فوقهم ؛ والمراد أنه محيط بهم من كل جانب كما جاء في الآية الأخرى : « أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا » .

(٢) (لاظليل) أى ليس بمظلّ فلا يبق من حر ذلك اليوم . وفي هذا تهكم بهم ، ونفى لأن يكون فيه راحة لهم ، وإيدان بأن ظلمهم غير ظل المؤمنين .

(٣) (ولا يفتى من اللهب) أى ولا يدفع من حر النار شيئا ، لأنه في جهنم فلا يظلمهم من حرها ، ولا يستترهم من لهيبها كما قال في سورة الواقعة : « فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ، وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ، لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ » . ثم وصف النار التي تحدث هذا الظل من الدخان فقال :

(إنها ترمى بشرر كالفصر . كأنه جمالة صفر) أى إن هذه النار يتطاير منها شرر متفرق في جهات كثيرة كأنه القصر عظاما وارتفاعا ، وكأنه الجمال الصفر لونا وكثرة وتتابعاً وسرعة حركة .

(ويل يومئذ للكاذبين) بهذا اليوم الذى لا يجدون فيه لدفع العذاب عنهم محيصا .

ثم وصف اليوم الذى فيه العذاب فقال :

(هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيمتدرون) أى هذا يوم لا يتكلمون من الحيرة والدهشة ، ولا يؤذن لهم فى الاعتذار ، لأنه ليس لديهم عذر صحيح ، ولا جواب مستقيم .

وقد يكون المراد — إنهم لا ينطقون بما يفيد فكأنهم لا ينطقون ، وتقول العرب لمن ذكر ما لا يفيد : ما قلت شيئاً .

(ويل يومئذ للمكذبين) بما دعيتهم إليه الرسل ، فأندرتهم عاقبته .

(هذا يوم الفصل) أى هذا يوم يفصل فيه بين الخلائق ، ويميز فيه الحق من الباطل ، فيؤتى كل عامل جزاء عمله من ثواب وعقاب ، ويفصل بين العباد بعضهم مع بعض ، فيقتص من الظالم المظلوم ، وترد له حقوقه .

ثم بين كيف يكون الفصل فقال :

(جمعناكم والأولين) أى جمعنا بينكم وبين من تقدمكم من الأمم فى صعيد واحد ليتمكن الفصل بينكم ، فيقتضى بهذا على هذا ، ولولا ذلك ما أمكن إذ لا يقضى على غائب .

(فإن كان لكم كيد فكيدون) أى فإن كان لكم حيلة فى دفع العذاب عنكم فاحتالوا ، لتخلصوا أنفسكم من العذاب .

وفى هذا تبريع لهم على كيدهم للمؤمنين فى الدنيا ، وإظهار اعجزهم وقصورهم حينئذ .

(ويل يومئذ للمكذبين) بالبعث لأنه قد ظهر لهم عجزهم وبطلان ما كانوا عليه فى الدنيا .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَقَفَّوْا كَمَا نَمَا يَشْتَهُونَ (٤٢)

كُلُّوْا وَاشْرَبُوْا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ (٤٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي

الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيَلُوكَ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كَلُّوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا
 إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (٤٦) وَيَلُوكَ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
 أَرَأَيْتُمْ لَآيَةَ كَعُونَ (٤٨) وَيَلُوكَ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ
 بَعَّدَهُ يُؤْمِنُونَ ؟ (٥٠)

شرح المفردات

ظلال : واحدها ظل ، وهو أعم من الظل ؛ فإنه يقال ظل الليل وظل الجنة ،
 ولنسكل موضع لم تصل إليه الشمس ظل ، ولا يقال في إلا لما زالت عنه الشمس ،
 ويعبر بالظل أيضا عن الرفاهية ، وعن العزة ، وعميون : أى أنهار ، أركعوا : أى صلوا ،
 حديث : أى كلام .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه ما يحل بالكفار من الخزي والنكال يوم القيامة — أعقبه
 بذكر ما يكون للمؤمنين من السعادة والكرامة حينئذ ، فهم يكونون في ترف ونعيم
 ويأكلون فواكه مما يشتهون ، ويقال لهم : كلوا واشربوا هنيئًا بما قدمت في الأيام
 الخالية ، وهذا جزاء كل محسن لعمله .

ثم خاطب المكذبين مهددا لهم فقال : « كَلُّوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا » ولا نصيب
 لكم في الآخرة ، لأنكم كافرون .

ثم ذكر أن الكفار إذا أمروا بظاعة الله والخشوع له أبوا وأصروا على ما هم
 عليه من الاستكبار فويل لهم مما يعملون ، وإذا لم يؤمنوا بالقرآن والنبي الذى جاء به
 مع تظاهر الأدلة على صدقه ، فبأى كلام بعده يصدقون ؟

الإيضاح

(إن المتقين في ظلال وعيون) أى إن المتقين في ظلال ظليلة ، وكن كنين ، وعيون وأنهار، أى في ظلال الأشجار وظلال القصور، فلا يصيبهم أذى حرّ ولا قرّ، بخلاف الكافرين فإنهم في ظل ذى ثلاث شعب لا ظليل ولا يعنى من اللهب كما تقدم .

ونحو الآية قوله في سورة يس : « هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرْضِ مَثْكُوتُونَ »

(وفوا له مما يشتهون) أى ولديهم فواكه يأكلون منها كلما اشتته نفوسهم لا يخافون ضررها ولا عاقبة مكروها .

(كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون) أى ويقال لهم : كلوا أيها الأبرار من هذه الفواكه ، واشربوا من هذه العيون كلما شئتم أكل هنيئاً خالص اللذة ، لا يشوبه سقم ولا يكدره تنغيص ، وهو دائم لكم لا يزول ولا يورثكم أذى في أبدانكم جزاء بما عملتم في الدنيا من طاعة الله ، واجتهدتم فيما يقربكم من رضوانه .

(إنا كذلك نجزي المحسنين) أى إنا كما جزينا هؤلاء المتقين بما وصفنا من الجزاء على طاعتهم إيانا في الدنيا — نجزي أهل الإحسان لطاعتهم وعبادتهم لنا ، فلا نضيع لهم أجرا ، كما قال : « إِنَّا لَا نُضِيعُ أُجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا » .

(ويل يومئذ للمكذبين) أى ويل للذين يكذبون ما أخبر الله به من تكريم هؤلاء المتقين بما أكرمهم به يوم القيامة .

ثم خاطب المكذبين مهدداً لهم فقال :

(كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون) أى كلوا بقية آجالكم ، وتمتعوا بقية أعماركم

وهي قليلة المدى ، وسنستأنّ بكم سنة من قبلكم من مجرمي الأمم الخالية التي مُتعت إلى حين ، ثم انتقمنا منهم بكفرهم وتكذيبهم لرسالتنا .

(ويل يومئذ للكاذبين) الذين عرضوا أنفسهم للعذاب الدائم بالتمتع القليل ، وكذبوا بما أخبرهم الله أنه فاعل بهم .

(وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون) أي وإذا قيل لهؤلاء المكذبين اعبدوا الله وأطيعوه واخشوا يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ، استكبروا وأصرروا على عنادهم .

روى أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر تقيفاً بالصلاة ، فقالوا لا نحجوا (لا نركع) فإنها سبّة علينا ، فقال عليه السلام « لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود » .

وروى ابن جرير عن ابن عباس أنه قال : إنما يقال هذا في الآخرة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون ، من جرّاء أنهم لم يكونوا يسجدون في الدنيا .

(ويل يومئذ للكاذبين) بأوامر الله ونواهيهِ .

وبعد أن بالغ في زجر الكفار بما تقدم ذكره ، وحث على الانقياد للدين الحق ختم السورة بالتعجيب من هؤلاء المشركين الذين لم يسمعوا نصيحة الداعي ، ولم يتبعوا عظاته ، وما فيه رشدهم وصلاحهم في آخرتهم ودينهم فقال :

(فبأى حديث بعده يؤمنون ؟) أي إذا لم يؤمنوا بهذه الدلائل على تجليها ووضوحها ، فبأى كلام بعد هذا يصدقون ؟

فالقرآن الكريم جامع لأخبار الدارين ، مبين لأحوال النشأتين على نمط بدع تؤيده الحجج القاطعة ، وتدعمه البراهين الناطقة .

وقصارى ذلك — إن القرآن قد اشتمل على البيان الشافي والحق الواضح ، فما بالهم لا يبادرون إلى الإيمان به قبل القوت وحلول الموت ، وعدم الانتفاع بعسى

ولعلّ وليت .
والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله أجمعين .

ما اشتملت عليه السورة الكريمة من المقاصد

حوت هذه السورة المقاصد الآتية :

(١) الإخبار بأن يوم الفصل آت لا شك فيه ، وقد أكد ذلك بالتقسيم بملائكته الكرام .

(٢) وعيد الكافرين بأنه سيستن بهم سنة الأولين من المكذبين .

(٣) توبيخ المكذبين على نكران نعم الله عليهم في الأنفس والآفاق .

(٤) وصف عذاب الكافرين بما تشيب من هوله الولدان .

(٥) وصف نعم المتقين وما يلبثونه من الكرامة في جنات النعيم ، ويتخلل

ذلك وصف خلق الإنسان والأرض والجبال ، وبيان عظمة الخالق

وكمال قدرته .

وصل ربنا على عبدك ورسولك محمد النبي الأمى وعلى آله وسلم .

وكان الفراغ من مسودة هذا الجزء بمدينة حلوان من أرباض القاهرة قاعدة

الديار المصرية في الثانى من ذى القعدة من السنة الخامسة والستين بعد الثلاثمائة

والألف من الهجرة النبوية المباركة ، فله الحمد والمنة .

obeikandi.com

فهرست

أهم المباحث العامة التي في هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٤	تمجيد الله نفسه وبيان أنه خالق الخلق والمتصرف في الملك .
٦	نظام الجاذبية البديع بين أجرام الأرضين والسموات .
٨	الكواكب زينة للسماء الدنيا وسبب لتكوين الأرزاق .
١٠	وصف النار بما تشب من هوله الولدان .
١١	سؤال الزبانية للمشركين بقولهم : ألم يأتيكم رسل ينذرونكم ؟
١٣	تهديد المشركين بأنه عليهم بما يصدر منهم في السر والعلن .
١٥	تنبيه العباد على نعمه المتظاهرة عليهم .
١٦	في الحديث « إن الله يحب العبد المؤمن المحترف » .
١٦	تحذير المشركين بحلول العذاب بهم كما حل بمن قبلهم .
١٩	ضرب المثل المبين لحالي المشرك والموحد .
٢٢	الإيمان كنود لنعمة ربه .
٢٤	أمره صلى الله عليه وسلم أن يقول للكافرين : هلاكى أورشمى لا تحبركم من عذاب الله .
٢٥	خلاصة ما حوته هذه السورة .
٢٧	الإقسام بالقلم وما يسطر به من الكتب .
٢٨	ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خادما ولا امرأة .
٣٠	تقوية قلب الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته إلى التشدد مع قومه المشركين .
٣١	الكذب أسّ المعاييب .
٣٣	وعيد الكذاب التمام .
٣٥	في أى أرض كانت الجنة التي ذكرت في الكتاب الكريم ؟
٣٧	جزاء أصحاب الجنة على حرمانهم للفقراء .
٤١	كيف يسوّى بين المطيع والمعاصى ؟
٤٢	سدد طرق الحجاج على المشركين .
٤٤	تحذير المشركين بما في قدرته تعالى من القهر .
٤٦	ذكر الشبه التي ربما تكون مانعة لهم من قبول الحق .
٤٨	ما جاء من الأحاديث في الإصابة بالعين .

الصفحة	المبحث
٤٨	ما تضمنته هذه السورة من موضوعات .
٥٠	بيان أن يوم القيامة حق لا شك فيه .
٥١	تفصيل ما نزل بكل أمة من العذاب .
٥٣	المشهور أن الناس كلهم من سلائل نوح وذريته .
٥٤	تفاصيل أحوال يوم القيامة .
٥٦	مأعده الله لمن أعطى كتابه يمينه .
٥٩	ما يتمناه من أوتى كتابه بشماله وجزاؤهم .
٦٠	العرب تكنى بالسبعة والسبعين والسبعائة عن الكثرة .
٦١	تعظيم القرآن والرسول المنزل عليه .
٦٢	محمد صلى الله عليه وسلم لا يستطيع أن يفتعل القرآن .
٦٤	ما تضمنته هذه السورة الكريمة .
٦٦	كان المشركون يقولون : ما هذا العذاب الذي نخوفنا به محمد ؟
٦٧	مقام القدس الإلهي بعيد المدى عن مقام العباد .
	بيان أن يوم القيامة آت بأهواله لا شك فيه .
٦٨	تمنى الكافر الفداء بالعزير لديه من مال وولد .
٧٠	المؤهلات التي توصل المرء إلى المراتب العلى .
٧٢	أثر عن السلف أنهم كانوا كثيرى الوجل والخوف من يوم القيامة .
٧٤	أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدع المشركين وشأنهم حتى يأتى اليوم الموعود .
٧٦	يخرج الكافرون من الأحداث سراعا يسابق بعضهم بعضا .
٧٧	خلاصة ما حوته هذه السورة الكريمة .
٧٨	إنذار نوح لقومه وتخويفهم بحلول العذاب بهم .
٧٩	تفصيل ما أُنذروهم به .
٨٠	صلة الرحم تزيد في العمر .
٨١	شكوى نوح لربه أنه أُنذر قومه فعصوه .
٨٣	وعد نوح لقومه بسعادة الدنيا والدين إذا آمنوا .
٨٥	توجيه أنظارهم إلى بدء خلقهم .
٨٦	تعداد النعم التي أنعم بها على الإنسان .
٨٧	الأصنام التي كانت تعبدتها العرب .
٨٩	جزاء قوم نوح بالغرق على عصيانهم .
٩١	مقاصد هذه السورة .

الصفحة	المبحث
٩٣	تسمية السور بأسماء تدعو إلى النظر والاعتبار .
٩٤	ما جاء عن الجن من السمعيات التي لا دليل عليها من العقل .
٩٦	الصاحبة تتخذ للحاجة إليها .
٩٨	مقال الجن حين بعث محمد صلى الله عليه وسلم .
١٠١	الحضب والسعة في الرزق لا توجد إلا إذا وجدت الطمأنينة والعدل ويزول الظلم .
١٠٥	أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول للناس لا علم له بقيام الساعة .
١٠٦	آلآية : فلا يظهر على غيبه أحدا ، تدل على إبطال الكهانة والتنجيم والسحر .
١٠٧	الرسول المرتضى يعلم بعض الغيوب بالوحي .
١٠٨	ما تضمنته هذه السورة .
١١٠	أول ما جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم خافه وظن أن به مسا من الجن .
١١١	أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقيام الليل وبترتيل القرآن .
١١٢	كيفية مجيء الوحي .
١١٣	أمره صلى الله عليه وسلم بمداومة الذكر والإخلاص في العبادة .
١١٥	حسن معاملة الناس .
١١٦	ألوان العذاب التي أعدت للمكذبين .
١١٩	التخفيف من قيام الليل للأعداء التي تحيط بهم .
١٢١	ما يفعل بعد الترخيص .
١٢٣	ما جاء في هذه السورة من أوامر وأحكام .
١٢٥	خوف النبي صلى الله عليه وسلم من الملك عند بدء الوحي .
١٢٦	مقاله علماء الاجتماع في حكمة النظافة في البدن والثوب .
١٢٧	ما يصادف الداعي للخير من العقبات .
١٢٩	مقاله الوليد بن المغيرة حين سمع القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم .
١٣٠	تهديد الوليد بن المغيرة .
١٣٢	ذكر ما سيفعل به يوم القيامة .
١٣٣	ما استنبطه الوليد من الزهات والأباطيل .
١٣٥	مقاله أبو جهل حين سمع قوله تعالى عليها تسعة عشر .
١٣٧	ما يعلم جنود ربك إلا هو .
١٣٨	قال أبو جهل : أما لرب محمد أعوان إلا تسعة عشر ؟ .
١٤١	أسباب إعراض المشركين عن القرآن .
١٤٣	ما كان يقوله النبي صلى الله عليه وسلم عند قراءته لآية : هو أهل التقوى وأهل المغفرة .

الصفحة	المبحث
١٤٦	مقاله عدى بن ربيعة لما أخبر بيوم القيامة .
	قال الفرءاء : مامن نفس بزة ولا فاجرة إلا تلوم نفسها .
	دليل القدرة على جمع العظام وتأليفها وإعادتها إلى الوضع الأول .
١٤٨	علامات يوم القيامة . ١٤٩ يحجر المرء يوم القيامة بجميع ما عمل .
١٥١	تعليم الله رسوله كيف يتلقى الوحي .
١٥٢	تواترت الأحاديث الصحيحة برؤية المولى يوم القيامة .
١٥٤	الدليل على صحة البحث .
١٥٥	العرب تحذف من الكلام ما يدل عليه .
١٥٧	مقاله النبي صلى الله عليه وسلم لأبى جهل .
١٥٨	كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول إذا قرأ : أليس ذلك بقادر : سبحانهك اللهم وبلى
١٦١	مقاله علماء طبقات الأرض في وجود الإنسان على ظهر البسيطة .
	الناس فريقان شاكرك وكفور . ١٦١ الهداية لطريق الخير والشر .
١٦٣	مأعده الله للشاكركين من شراب شهى ولباس بهى .
١٦٥	وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإحسان إلى الأرقاء .
١٦٦	القلب إذا سر استنار الوجه . ١٦٩ . وصف شراب المتقين وأوانهم .
١٧٠	مقاله المأمون ليلة زفافه ببوران بنت الحسن بن سهل .
١٧١	التحلى يختلف باختلاف العادات والطبائع .
١٧٢	مايلقاه السعداء من الكرامة كان جزاء لهم على أعمالهم .
١٧٤	أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالصبر على أذى قومه .
	نبيه صلى الله عليه وسلم عن اتباع الأثمين والكافرين .
١٧٦	جرت سنة الله ببقاء الأصلح وإهلاك ماعداه .
	تخويف الكفار بما حصل لمن قبلهم من الكفار المكذبين للرسول .
١٧٧	ما تضمنته السورة من المقاصد .
١٧٩	أقسم الله سبحانه بطوائف من الملائكة إن ما وعدتم به حق .
١٨٣	تذكير الإنسان بالنعم التي تترى عليه .
١٨٦	وصف العذاب الذي يكون للمكذبين يوم القيامة .
١٨٩	وصف ما يكون للمؤمنين من السعادة والكرامة في هذا اليوم .
١٩٠	مقاله النبي صلى الله عليه وسلم لتقيف حين أمرهم بالصلاة .
	القرآن الكريم اشتمل على البيان الشافي والحق الواضح .
١٩١	ما اشتملت عليه السورة الكريمة من المقاصد .